الطبعة الثانية
منقحة

أطلس
الحضارة الإسلامية

تأليف

د. إسماعيل راجي الفاروقي

د. لويس لمياء الفاروقي

العبيكان
Obeikan

المعهد العالمي للفكر الإسلامي
INTERNATIONAL INSTITUTE OF ISLAMIC THOUGHT

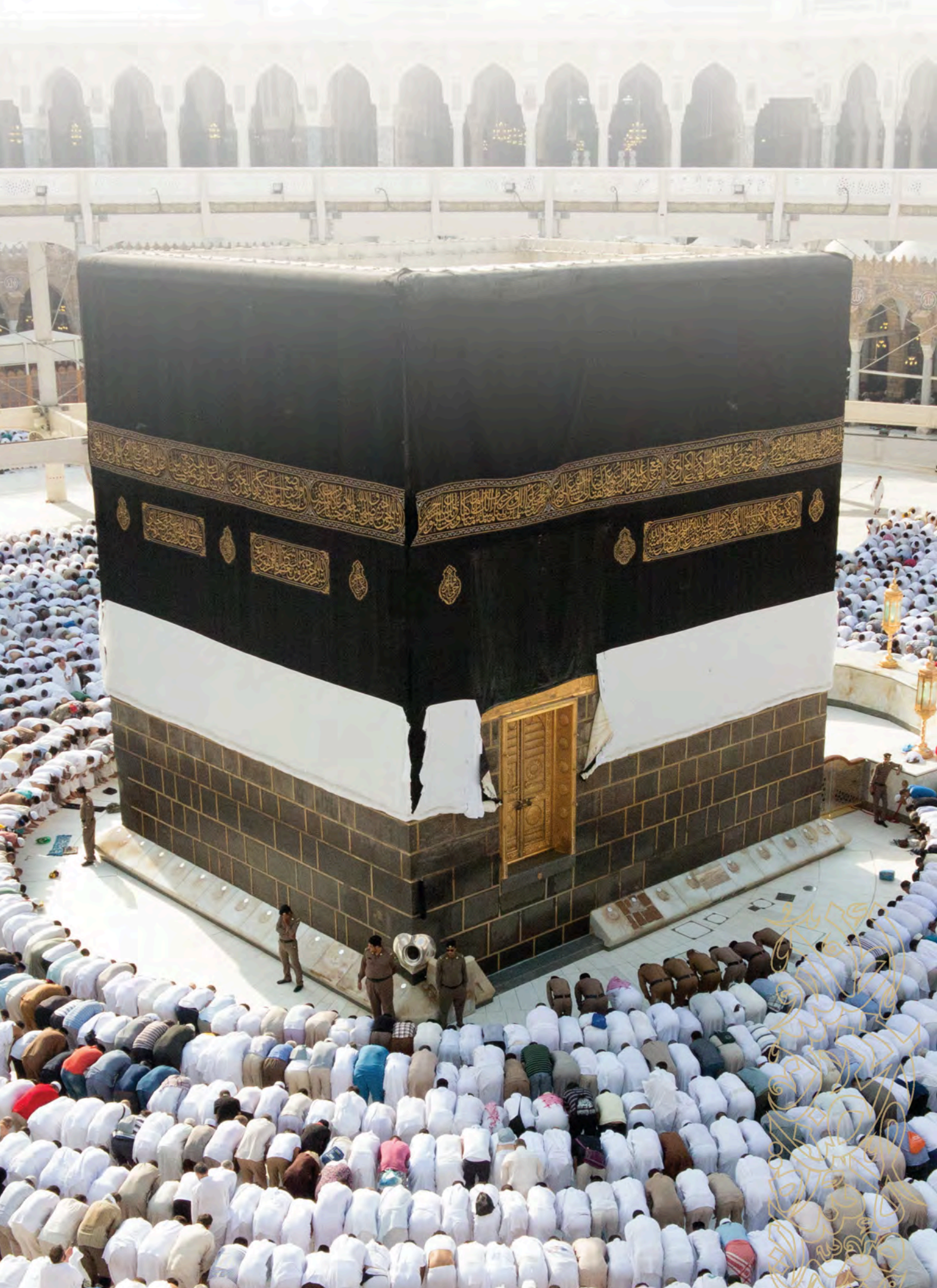

أطلس الحضارة الإسلامية

تأليف

د. إسماعيل راجي الفاروقي - د. لويس لميـــاء الفاروقي

نقله إلى العربية

د. عبد الواحد لؤلؤة

راجعه

د. رياض نور الله

المعهد العالمي للفكر الإسلامي
INTERNATIONAL INSTITUTE OF ISLAMIC THOUGHT

العبيكان للنشر
Obeikan Publishing

© شركة العبيكان للتعليم، 1445هـ

الفاروقي، إسماعيل راجي

أطلس الحضارة الإسلامية. / إسماعيل راجي الفاروقي؛ رياض نورالله (مراجع) ؛ لوس لمياء الفاروقي (مؤلف. مشارك) ؛ عبدالواحد لؤلؤة (مترجم)- الرياض، 1445هـ

646 ص ؛ 16.5 × 24 سم

ردمك: 978-603-509-508-2

1. الحضارة الإسلامية
2. الثقافة الإسلامية
3. العلوم عند المسلمين
4. الفنون الإسلامية
5. العالم - تاريخ - خرائط
6. الفتوحات الإسلامية - خرائط
7. الأرض - تاريخ - خرائط
8. التاريخ الإسلامي - أطالس
9. المساجد - العالم - خرائط

ديوي 953

رقم الايداع 9693/ 1445

الورق وسماكته: كوشيه 80 غ

غلاف الكتاب: كرتوني ٤ ألوان

ألوان الداخلي: ملون

مكان النشر: المملكة العربية السعودية، الرياض.

الفئة العمرية: يافعين - شباب - بالغين.

الطباعة في: شركة العبيكان للطباعة.

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الطبعة الثانية

1446هـ / 2024م

نشر وتوزيع العبيكان Obeikan

المملكة العربية السعودية - الرياض طريق الملك فهد - مقابل برج المملكة

هاتف: 4808654 11 966+، فاكس: 4808095 11 966+، ص.ب: 67622 الرياض 11517

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

المركز الرئيس - الولايات المتحدة الأمريكية

The International Institute of Islamic Thought

P.O.Box: 669, Herndon, VA 20172 - USA Tel: (1-703) 471 1133, Fax: (1-703) 471 3922

www.iiit.org / iiit@iiit.org

جميع الحقوق محفوظة، ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ (فوتوكوبي)، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

المحتويات	7
قائمة الخرائط	9
مقدمة الطبعة الثانية	13
مقدمة الطبعة العربية الأولى	15
كلمة الناقل	19
المقدمة	23
القسم الأول: السياق	27
الفصل الأول: بلاد العرب، المهاد	29
الفصل الثاني: اللغة والتاريخ	55
الفصل الثالث: الدين والحضارة	85
القسم الثاني: الجوهر	121
الفصل الرابع: جوهر الحضارة الإسلامية	123
القسم الثالث: الشكل	147
الفصل الخامس: القرآن	149
الفصل السادس: السنة	171
الفصل السابع: الأركان والمؤسسات	209
الفصل الثامن: الفنون	237

القسم الرابع: التجليات 259

الفصل التاسع: نداء الإسلام 261

الفصل العاشر: الفتوحات وانتشار الإسلام 285

الفصل الحادي عشر: العلوم المنهجية 325

الفصل الثاني عشر: علوم القرآن 339

الفصل الثالث عشر: علوم الحديث 355

الفصل الرابع عشر: القانون 369

الفصل الخامس عشر: علم الكلام 397

الفصل السادس عشر: التصوف 419

الفصل السابع عشر: الفلسفة الإغريقية 433

الفصل الثامن عشر: نظام الطبيعة 447

الفصل التاسع عشر: فنون الأدب 475

الفصل العشرون: فنون الخط 503

الفصل الحادي والعشرون: الزخرفة في الفنون الإسلامية 527

الفصل الثاني والعشرون: فنون المكان 565

الفصل الثالث والعشرون: هندسة الصوت أو فن الصوت 601

قائمة الخرائط

الخريطة (1)	بلاد العرب: صورة الأرض والدول الحديثة	32
الخريطة (2)	قبائل العرب قبل ظهور الإسلام	35
الخريطة (3)	بلاد العرب: دول العرب قبل ظهور الإسلام	43
الخريطة (4)	الدِّين في بلاد العرب قبل الإسلام	48
الخريطة (5)	الألفباء العربية	58
الخريطة (6)	طرق التجارة 1 هـ / 622 م	70
الخريطة (7)	التجارة البحرية العربية 1 هـ / 622 م	78
الخريطة (8)	الشرق الأدنى القديم – عامة	88
الخريطة (9)	الأَلْف الرابع ق.م: تغلغل الأكَّديين في الهلال الخصيب	96
الخريطة (10)	الأَلْف الثالث ق.م، مولد الحضارة. أ– أول دويلات المدن (3000 – 2360)	102
الخريطة (11)	الأَلْف الثالث ق.م مولد الحضارة. ب– أول دولة عالمية، (2360 – 2180)	110
الخريطة (12)	الأَلْف الثاني ق.م. أ – تمزق الدولة العالَمية غزو الكَوتيين بلادَ ما بين النهرين	113
الخريطة (13)	الألف الثاني ق.م. ب– الدولة العالمية الثانية، التمزق الثاني	116
الخريطة (14)	الأصول المكية والعِبرية (1800 ق.م – 622 م)	127
الخريطة (15)	الأَلْف الأول ق.م، قوة واضطراب دون مذهب فكري	131
الخريطة (16/أ)	حملات الإسكندر الكبير	135
الخريطة (16/ب)	إمبراطورية الإسكندر الكبير	137
الخريطة (16/ج)	الإمبراطورية السلوقية	139
الخريطة (16/د)	دولة البطالمة	141
الخريطة (16/هـ)	الإمبراطورية الرومية الشرقية	144
الخريطة (17)	ديانات الشرق الأدنى القديم	152
الخريطة (18)	مكة المكرَّمة في عهد الرسول	157
الخريطة (19)	المدينة المنوَّرة وما جاورها	162
الخريطة (20)	هجرة الرسول (ﷺ) إلى يثرب، سنة 1هـ/ 622م.	175
الخريطة (21)	وفود الرسول (ﷺ) إلى الممالك المجاورة، (1 هـ / 628 م)	177

قائمة الخرائط

الخريطة (22)	حروب الرِّدَّة (10–12هـ / 632–634م)	183
الخريطة (23/أ)	الشريعة والفقه، 41–200هـ	188
الخريطة (23/ب)	الشريعة والفقه، 201–350 هـ / 816–963م	190
الخريطة (23/ج)	الشريعة والفقه، انتشار المذاهب	191
الخريطة (24/أ)	الإسلام والمسيحية، 442 هـ / 1050م	213
الخريطة (24/ب)	الإسلام والمسيحية، 1009هـ / 1600م	217
الخريطة (24/ج)	الإسلام والمسيحية، 1358هـ /1939م	225
الخريطة (24/د)	الإسلام والمسيحية، 1400هـ / 1980م	228
الخريطة (25)	صورة الأرض كما رسمها الشريف الإدريسي عام 562 هـ / 1177م	241
الخريطة (26)	صورة الأرض كما رسمها أبو الريحان البيروني، عام 430 هـ / 1048م	248
الخريطة (27)	صورة الأرض كما رسمها إبراهيم بن محمد الإصطخري (القرن 4 هـ / 10 م)	249
الخريطة (28)	المحيط الهندي كما رسمه أحمد بن ماجد، (القرن 10 هـ / 17 م)	251
الخريطة (29)	صورة الأرض كما رسمها الصفاقسي (القرن 4هـ / سنة 910م)	253
الخريطة (30)	صورة الأرض كما رسمها ابن يونس المصري (339هـ / 951م)	254
الخريطة (31)	إفريقيا كما رسمها الخوارزمي (236هـ851–م)	264
الخريطة (32)	بحر فارس والبحر المتوسط، كما رسمهما إبراهيم بن محمد الإصطخري (القرن 4هـ/ 10 م)	269
الخريطة (33/أ)	فتوحات الرسول (ﷺ): 1 – قوافل قريش (وقعة بدر)، السنة 2 هـ / 624 م	275
الخريطة (33/ب)	فتوحات الرسول (ﷺ): 1 – وقعة مؤتة، 8 هـ / 629 م	276
الخريطة (33/ج)	فتوحات الرسول (ﷺ): 1 – وقعة تبوك، 9 هـ / 630 م	277
الخريطة (34/أ)	فتوحات الرسول (ﷺ): 2 – بدر	278
الخريطة (34/ب)	فتوحات الرسول (ﷺ): 2 – جبل أُحُد	280
الخريطة (34/ج)	فتوحات الرسول (ﷺ): 2 – الخندق؛ خندق حفره المسلمون دفاعًا عن المدينة	281
الخريطة (34/د)	فتوحات الرسول (ﷺ): 2 – مكة	282
الخريطة (35)	الفتوحات: الهلال الخصيب 11–18هـ / 633–640م	289
الخريطة (36)	معركة اليرموك، 14هـ / 636م.	295

قائمة الخرائط

الخريطة (37)	الفتوحات في آسيا،28-40 / 650-661م.	299
الخريطة (38)	الفتوحات في آسيا، 41-133هـ / 661-750م	311
الخريطة (39)	الحروب الصليبية	322
الخريطة (40)	الفتوحات في الهند 93-112 هـ / 711 - 1700 م	329
الخريطة (41)	الفتوحات في جنوب شرق آسيا, 1-1112 هـ / 622 - 1700 م	332
الخريطة (42)	الفتوحات حول البحر المتوسط، 11-133 هـ / 632 - 750 م	334
الخريطة (43)	الفتوحات في شمال إفريقيا وأوروبا, 11-133 هـ / 632 - 750 م	336
الخريطة (44)	الفتوحات في إقليم (بروڤنس) وسويسرا إلى حدود نهر الراين 225-294هـ / 839-906 م	342
الخريطة (45)	الفتوحات في غرب إفريقيا حتى عام 700 هـ / 1300 م	347
الخريطة (46)	الفتوحات في غرب إفريقيا، القرن 7-12 هـ / 14-18 م	349
الخريطة (47)	طرق التجارة في العالم الإسلامي، القرن 4 - 10 م	352
الخريطة (48)	الغـــزو التتـــري	358
الخريطة (49)	الخط العربي في العالم الإسلامي	363
الخريطة (50)	لغات العالم الإسلامي	365
الخريطة (51)	أعراق العالم الإسلامي	366
الخريطة (52)	الاستقلال السياسي في العالم الإسلامي.	372
الخريطة (53)	الحـــج	401
الخريطة (54)	الحج: ميقات الإحرام	409
الخريطة (55)	مدارس الطب والمستشفيات الرئيسة في تركيا، 1250-1609 م	450
الخريطة (56)	قرطبة: جوهرة الغرب، 950 م	454
الخريطة (57)	المجموعات العرقية في غرب إفريقيا	478
الخريطة (58)	إفريقيا الغربية اليوم	483
الخريطة (59)	غرب إفريقيا: نسبة السكان المسلمين 1980 م	484
الخريطة (60)	استعمال أساليب الخط العربي في العالَم الإسلامي	506
الخريطة (61)	انتشار الفن الإسلامي، القرون (7-20م)	507

الخريطة (62)	المناطق الفنية في العالَم الإسلامي: مواقع مهمة	515
الخريطة (63)	خُطَط المساجد المستعملة في المغرب	570
الخريطة (64)	خُطَط المساجد المستعملة في إفريقيا الوسطى	571
الخريطة (65)	خُطَط المساجد المستعملة في المشرق	573
الخريطة (66)	خُطَط المساجد المستعملة في تركيا	576
الخريطة (67)	خُطَط المساجد المستعملة في إيران وآسيا الوسطى	582
الخريطة (68)	خُطَط المساجد المستعملة في شبه القارة الهندية	585
الخريطة (69)	خُطَط المساجد المستعملة في شرق آسيا	586
الخريطة (70)	مشاهير المؤلفين في هندسة الصوت	606
الخريطة (71)	الآلات الموسيقية في المغرب أ- وتريات، ب-هوائيات، ج - آلات طرق.	610
الخريطة (72)	الآلات الموسيقية في أواسط إفريقيا. أ- وتريات ب- هوائيات ج- آلات طَرق	619
الخريطة (73/أ)	الآلات الموسيقية في المشرق أ- وتريات	624
الخريطة (73/ب)	الآلات الموسيقية في المشرق ب- هوائيات	624
الخريطة (73/ج)	الآلات الموسيقية في المشرق ج- آلات طرق	625
الخريطة (74)	الآلات الموسيقية في..... أ- وتريات ب- هوائيات ج- آلات طَرق	630
الخريطة (75/أ)	الآلات الموسيقية في إيران وأواسط آسيا أ- وتريات	632
الخريطة (75/ب)	الآلات الموسيقية في إيران وأواسط آسيا ب- هوائيات	632
الخريطة (75/ج)	الآلات الموسيقية في إيران وأواسط آسيا ج- آلات طرق	632
الخريطة (76/أ)	الآلات الموسيقية في شبه القارة الهندية. أ- وتريات	632
الخريطة (76/ب)	الآلات الموسيقية في شبه القارة الهندية. ب- هوائيات	633
الخريطة (76/ج)	الآلات الموسيقية في شبه القارة الهندية. ج- آلات طرق	633
الخريطة (77/أ)	الآلات الموسيقية في شرق آسيا. أ- وتريات	639
الخريطة (77/ب)	الآلات الموسيقية في شرق آسيا. ب- هوائيات	639
الخريطة (77/ج)	الآلات الموسيقية في شرق آسيا. ج- آلات الطرق	639

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

ربع قرن من الزمان مرَّ على صدور الطبعة الأولى للترجمة العربية من هذا السِّفْر المعرفي القيِّم، وما زال حضوره الفكري والفني والمعرفي ماثلًا في المحاورات الأكاديمية والثقافية، وكلما حاولتُ التحاور مع أفكار الكتاب بين الفَيْنة والفَيْنة تجدني أتلمَّس أفكارًا ومعانيَ ورؤىً متجددة، فكأن الفاروقي وزوجه كانا يكتبان لعصر قادم، مستوعبيْن ما أُنجز في الماضي، متفاعليْن مع لحظة الحاضر، مستشرفيْن لمآل الفعل الحضاري في بناء المستقبل، متجاوزيْن بهذا حدود الزمان والمكان، وبمنهجية علمية رصينة، عهدناها في الفاروقي خاصةً؛ إذ خبرتُه وعايشتُه فكريًا وعلميًا وإداريًا.

ركّزتُ في مقدمتي للطبعة الأولى على بِنية الفاروقي العلمية والثقافية والاجتماعية والدينية إلخ، وانعكاسات هذه البِنى على رؤاه وتصوراته للعِلْم والعَالَم، وتمثَّلات ذلك في الأطلس بصورة جَليّة، وفي معظم كتاباته المتنوعة والشاملة التي حاورت حقولًا معرفية متعددة، وكشفتُ عن أهمية الكتاب بوصفه نمطًا جديدًا في الدراسات البَيْنية، والمنفتحة على تخصصات كثيرة؛ إذ يتناول الموضوعَ في جوانبه الممتدة في حقول معرفية علمية مختلفة، لتتشكل صورةٌكُليَّة عن المفردة أو الموضوع الذي يتناوله، وهذا يكشف عن الموسوعية والرؤية الكُليّة التكاملية التي عُرف بها الفاروقي رحمه الله، وتجلت في معظم مؤلفاته التأسيسية، مثل كتاب التوحيد والأخلاق المسيحية، والأطلس التاريخي لديانات العالم... إلخ.

مع مرور ربع قرن من الزمان -وهو عمر زمني طويل نسبيًا- على ظهور الكتاب، قد تنثال أسئلة ومراجعات وإشكاليات تتصل بالمنهجية وطرائق التفكير بالموضوع، لا سيما أننا نعيش الآن في عصر معقَّد، يتَّسم في كثير من جوانبه بالسيولة وغياب المرجعية الصَّلبة، لا سيما في عالم الغرب، والتسارع الهائل في التقنيات التي تحاول أن تأخذ دور الموجِّه الإنساني، وغدا وادي السيلكون Silicon Valley عرَّابًا لتأطير النظريات الاجتماعية والنفسية والسلوكية والاقتصادية، وما فتئ يناقش مصير البشر والبشرية، في ظل غياب وتغييب واضح للجماعات العلمية والفكرية في مناقشة هذا الوضع المصيري للبشرية.

إننا بحاجة إلى الكشف عن جوهر الأفكار الفاروقية في هذا الكتاب، وتحسُّس كوامن المشترك الإنساني في عصرنا هذا الذي وصفه بعض المفكرين بعالم ما بعد الحقيقة وما بعد المألوف؛ إذ إن عالم الأفكار أكثر رسوخًا وأعمق خطابًا وأدوم حضورًا وفعلًا من عالم الأشخاص وعالم الأشياء؛ فما التراكم الذي حدث على أفكار هذا الكتاب مما نتلمسه في المؤلفات والرسائل الجامعية والمؤتمرات؟ وكيف لنا أن نتناول الدَّرس العقدي والاجتماعي والثقافي والفني بالتشكُّل الذي صنعه الفاروقي في كتابه هذا وفي صِنْوه كتاب (التوحيد)، اللذيْن عبّرا بصورة واضحة عن الرؤية الكُليَّة الإسلامية، ودور التوحيد في تشكُّل هذه الرؤية، وفي تجلياتها في الوجود وتمثلاتها في حياة المسلم.

ونظرًا لمكانة هذا الكتاب في أروقة العلم والمعرفة، فضلًا عن سؤال الباحثين وطلبة العلم المتكرر عن هذا المكنز في المكتبات والمؤسسات الأكاديمية والثقافية، وحِرْص المعهد العالمي للفكر الإسلامي ومكتبة العبيكان على إخراجه بِحُلّة قَشيبة تتسق فنيًا وروحَ العصر، فقد آثرنا أن نجدد العهد والوفاء للفاروقي وزوجه ولأفكارهما، بطباعة هذه الأيقونة المعرفية طبعة ثانية، سائلين المولى أن يجعلها في ميزان حسناتهما، وأن يتقبل من الجميع عملهم وحرصهم على تزويد المسلم بكل ما يسهم في بناء شخصيته الحضارية، ليغدو نبراسًا للبشرية جمعاء.

والله ولي التوفيق والحمد لله رب العالمين

د. هشام الطالب

رئيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي

واشنطن العاصمة

مقدمة الطبعة العربية الأولى
المعهد العالمي للفكر الإسلامي
واشنطن / الولايات المتحدة الأمريكية

وُلِدَ هذا الكتاب يتيم الأبوين، فبينما كان في مطابع ماكميلان، استُشهِد مؤلِّفاه الدكتور إسماعيل راجي الفاروقي وزوجته الدكتورة لويس لمياء الفاروقي -رحمهما الله- في رمضان 1406 هـ/ مايو 1986 م؛ حيث صُلِّي عليهما ووُرِيَا الثرى في ولاية بنسلفانيا بأمريكا قبل أن يرى الكتاب النور في أصله باللغة الإنجليزية.

وهكذا يُتوِّج هذا السِّفرُ أعمالَ الزوجين الفكرية والفنية، نُضجًا وموضوعًا، شكلًا ومحتوًى، فقد أصدر الدكتور الفاروقي 25 كتابًا، ونشَر أكثر من مئة بحث، وألَّفت الدكتورة لمياء خمسة كتب في مجالات: الإسلام والفن والمرأة والقرآن.

يُعَدُّ الدكتور إسماعيل الفاروقي من القلة النادرة المؤهَّلة للكتابة عن الحضارة الإسلامية، وذلك لأسباب جغرافية ولُغوية وعلمية وحياتية ودينية.

أما جغرافيًّا، فقد وُلِدَ في يافا عامَ 1339هـ/ 1921 م، وكانت حياته تَرْحالًا مستمرًّا، من يافا إلى بيروت إلى القاهرة إلى مونتريال إلى كراتشي إلى شيكاغو إلى سيراكيوز إلى فيلادلفيا (التي دُفِنَ فيها). وقد تنقَّل كثيرًا بين القارات الأربع: آسيا وأوروبا وأمريكا وإفريقيا، فخَبَرَ الشعوبَ والحضارات المختلفة بنفسه.

أما تأهيله لغويًّا، فقد أتقَن العربيةَ لغتَه الأمَّ في المسجد، ودرَس الفرنسية في مدارس القساوسة الفرنسيين فبرع فيها، ثم تبحَّر في الإنجليزية ابتداءً من الجامعة الأمريكية ببيروت، ثم في كندا وأمريكا حتى وفاته. وقد أصبح أديبًا في اللغات الثلاث، لدرجة أنه كان يفكِّر ويخطُب ويكتب بالعربية والفرنسية والإنجليزية على أعلى المستويات. وكما يقولون: فإن إتقان المرء لُغة جديدة يجعله كمَنِ اكتسب شخصية أخرى تضاف إلى شخصيته، وبذلك تُفتَح أمامه نافذة واسعة لحضارة الناطِقينَ بها.

أما تأهيله العلمي، فقد دفعه شغفه للتعلم والتعليم إلى الدراسة والتدريس في جامعات كثيرة، أهمها: الجامعة الأمريكية ببيروت، ثم جامعة إنديانا، ثم جامعة هارفرد، ثم جامعة القاهرة، ثم الأزهر الشريف، ثم جامعة ماكجل بكندا، ثم المعهد المركزي للبحوث الإسلامية بكراتشي، ثم جامعة شيكاغو، فجامعة سيراكيوز، وأخيرًا جامعة تِمبل بفيلادلفيا حتى وفاته -رحمه الله- عندما كان يرأس المعهد العالمي للفكر الإسلامي في واشنطن.

أما تأهيله حياتيًا للكتابة في علوم وفنون الحضارة، فقد عاصر الكثير من الأحداث العربية والإسلامية والعالمية، فأصبح حاكمًا لمدينة الجليل وعمره أربعة وعشرون عامًا، ثم شارك في الجهاد دفاعًا عن فلسطين، وعَمِل مقاولًا للبناء في أمريكا؛ يصمِّم ويخطِّط ويبني ويعمِّر ويقوم بالتجميل داخل البيوت وخارجها بنفسه؛ وهذا ما جعَله يتذوق الفن الجَمالي نظريةً وتطبيقًا. وتقلَّب في الوظائف وكراسي الأستاذية والأعمال الحرة، وترأَّس مؤسسة الوقف الإسلامي في أمريكا الشمالية، وهو ما أهَّله للتعامل مع الفلسفات والديانات والفنون، وتطبيقاتها وعلاقاتها بالحضارات.

أما تأهيله الديني، فقد حباه الله نعمة فَهْم الأديان من علماء معتنقيها، فتعلَّم الإسلام في البيت والمسجد وجامعة الأزهر، وتعلَّم المسيحية من قساوستها وأساتذتها ودُعاتها في المدارس الفرنسية والكليات النصرانية، بحيث استوعب التوراة والإنجيل بعُمق. وكان من الأوائل الذين تكلموا وكتبوا تحت مصطلح الديانات الإبراهيمية الثلاث؛ حيث إنه أسَّس وترأَّس قسم الدين الإسلامي في أكاديمية الأديان الأمريكية American Academy of Religion. وتخصصه للدكتوراه في موضوع الفلسفة جعله قادرًا على التعامل مع جميع الأديان والنقد الواعي لها؛ ولذلك نجده يؤلِّف:

- Historical Atlas of the Religions of the World الأطلس التاريخي لأديان العالم (سنة 1974 م).
- The Great Asian Religions الديانات الآسيوية العظيمة (سنة 1976م).

كما أنه ترجم كتاب حياة محمد، للمرحوم الدكتور محمد حسين هيكل، إلى الإنجليزية (سنة 1976م). أما كتابه الأخلاق المسيحية: تحليل نظمي وتاريخي للأفكار السائدة، الذي نشرته جامعة ماكجل بكندا (سنة 1976م)، فقد تأتَّى عن اقتراح للمستشرق ولفرد كانتول سميث، بأن يقضي الدكتور الفاروقي سنتين في كلية اللاهوت؛ ليزداد اتصالًا بالجو المسيحي عبر القساوسة وأساتذة اللاهوت، وهو ما تحقَّق له، لكن القساوسة ترددوا في نشر الكتاب بعد انتهاء الدكتور الفاروقي منه، قائلين: إن أي مسيحي مهما غزُر علمه، لا بد أن يشعر عندما يقرأ هذا الكتاب بأن الأسس الدينية للعقيدة المسيحية توضَع موضع الاختبار في أعماق نفسه، ويُمسي التحدِّي طاغيًا داخل فكره، وقلَّما ينجو أحد من هذه الهِزة التي تقتلع الجذور وتطيح بالكيان...

كان -رحمه الله- عالِمًا موسوعيًّا، قوي الحُجة، رصينَ المنطق، سديدَ القول، صائبَ الرأي، ومساجلاته الكثيرة من المستشرقين والعَلمانيين تشهد بذلك.

إن من يتصدى للكتابة عن الحضارة الإسلامية، لا بد أن يكون محيطًا بعلوم الحضارات والأديان وفنونها، وملمًّا بتاريخ الشعوب، وإلا جاء تناوله ناقصًا لا يقوى على الثبات أمام النقد والتحليل.

لقد كان -رحمه الله- يقول: «علينا نحن المسلمين أن نتحلى -إلى جانب إسلامنا- بالفهم العميق للأفكار والأديان الأخرى، بحيث يُعلِّم التلميذ منا أستاذَه!» وهذا ما جعله عالِمًا موسوعيًّا بحق.

المقدمة

وهنا لا بد من سرد قصة رواها الدكتور جمال البرزنجي، فقال إنه دعا الدكتور الفاروقي لحفلة عشاء بمناسبة عيد الفطر في جمعية الطلبة المسلمين في جامعة ولاية لويزيانا بمدينة باتون روج سنة 1972م، وتكلَّم -رحمه الله- ساعة كاملة أمام طلبة الجامعة وأساتذتها، مسلمين ومسيحيين ويهود، فرفع قسيسٌ إصبعه طالبًا التعقيب، فساد الوجوم الحاضرين، فما عساه يقول؟! وأُعطِي الفرصة، فوقف القسيس قائلًا: «أودُّ أن أُدلي باعتراف أمام الدكتور الفاروقي، لقد تعلَّمت عن المسيحية هذه الليلة وحدها أكثر ممَّا تعلمته في دراستي لها خلال السنوات الثلاثين الماضية!».

نعَم، كان إتقانه لعلوم الفلسفة والأديان بصورة قلَّ نظيرها بين المسلمين في جيلنا هذا. يقولون إن التواضع يدل على العالِم القدير، فعلى الرغم من علمه الواسع كان لا يصف نفسه بأنه عالِم، بل يؤكد أنه طالب. إن ذلك يذكِّر بالإمام الغزالي -رحمه الله- حيث إنه تعمَّق في الفلسفة أكثر من أعلامها، ثم ألَّف كتابه (تهافت الفلاسفة). وهكذا كان الفاروقي -رحمه الله- فقد تبحَّر في الفلسفة والأديان والتاريخ والآداب؛ كي يتمكَّن من الرد على المستشرقين ويدحض حُجَجهم.

سألته مرَّة في أثناء مخيم الندوة العالمية للشباب الإسلامي في قبرص عام 1979م: «كيف نهلت من منهل المستشرقين، ثم تمكَّنتُ من مقارعتهم بهذه القوة؟» فأجاب بلهجة التلميذ المتواضع: «يظن بعض الناس أن أفكاري من صنعي، لكن كلَّما يُشكِل عليَّ أمرٌ أجد جوابه عند شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله».

وصفَه الدكتور ستانلي برايس فرست (Stanley Brice Frost)، عميد كلية اللاهوت في جامعة ماكجل في مونتريال، سنة 1967م بالآتي: «كان الفاروقي رجل العالَمَين الشرقي والغربي، سَبَرغَوْر كليهما بعمق، لكنه لم يجد الطمأنينة والسكينة في أي منهما!». لكن في الحقيقة، إن الدكتور الفاروقي وجَد ضالَّته المنشودة والسكينة في الإسلام في بداية السبعينيات من خلال اتحاد الطلبة المسلمين في الولايات المتحدة وكندا؛ حيث أصبح سنة 1972م أول رئيس لجمعية علماء الاجتماعيات المسلمين التي أطلَق فكرتها حينذاك الأخ الدكتور عبدالحميد أحمد أبو سليمان، الذي كان في ذلك الوقت طالبًا للدراسات العليا مرشَّحًا للدكتوراه في جامعة بنسلفانيا.

لقد تُرجِم كتاب The Cultural Atlas of Islam إلى اللغات: الماليزية، والتركية، والإندونيسية، والإسبانية، والبرتغالية، ورأى المعهد العالمي للفكر الإسلامي ضرورة ترجمته إلى العربية؛ لأنه يُعد إضافة أصيلة وحقيقية للمكتبة العربية، وذلك لعدة أسباب، منها:

أولًا: أنه يتجاوز ما يحاوله الغربيون في عرض التاريخ من زوايا جغرافية إقليمية محدودة، وما يعرضه المسلمون في كتاباتهم للتاريخ من زاوية ترتيب الأحداث بحسب تسلسلها الزمني، فهو يقدِّم الحضارة الإسلامية مسيرة مستمرة، تنبعث من مبدأ التوحيد ليصنع العمران والبناء، ويَصهَر الزمان والأقطار ليرتِّبها، ويصُفها ويرصها ليُحكِم نَظْمها في توافق وترابط عبر الأحقاب والأجناس.

ثانيًا: لا يتناول الدكتور الفاروقي التاريخ الإسلامي بوصفه أحداثًا ووقائعَ حربية عسكرية مليئة بالصراعات المستمرَّة منذ عهد الرسالة حتى الآن، بل يعرض تأثيرات العقيدة والقرآن والسُّنة والمبادئ الإسلامية على النواحي الاجتماعية والثقافية والفنية والعلمية والاقتصادية؛ وهو ما يُتيح للقارئ أن يرى تأثير الدين في ترقية حياة البشر من خلال تزكية النفس وإعمار الأرض.

ثالثًا: يُديم الكتاب الربط بين التفاصيل والجزئيات لمظاهر الحضارة مع النظرة الكلية الشاملة لمبدأ التوحيد وانعكاساته، فهو يعرض الإسلام من الداخل إلى الخارج، ويتخطَّى عاملَي الزمان والمكان إلى مكمَن العقيدة والدين؛ ليُجليَ حقيقة الحضارة الإسلامية النقية، وبذلك تتضح معالم الصورة بين الجوهر في الدين والمظهر في الحضارة والعمارة، فالتوحيد هو لُبُّ هُوية الحضارة الإسلامية.

فلسان حال هذا الكتاب يقول: «هذا ما يُبدِعه الإسلام من حضارة وعمران وصلاح، وشتَّان ما بين هذا وما تُبدِع الأديان والفلسفات والمبادئ الأخرى من حضارة وعمران وإصلاح!»

وقد وفَّق الله -سبحانه- الإخوة أصحاب مكتبة العبيكان في الرياض إلى إدراك أهمية هذا الكتاب للقارئ العربي، فتمَّ الاتفاق بين المعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن ومؤسسة العبيكان بالرياض، على ترجمته من الإنجليزية إلى العربية، ونشره بالمستوى اللائق به لغةً وطباعةً وإخراجًا؛ إعلاءً لكلمة الحق وإحياءً لحضارة الإسلام.

نسأل الله -تبارك وتعالى- أن يوفِّق هذا العمل النافع، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن يتقبل من الجميع صالح الأعمال، آمين.

وآخِر دعوانا أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

د. هشام الطالب
نائب رئيس
المعهد العالمي للفكر الإسلامي
واشنطن / الولايات المتحدة الأمريكية

كلمة الناقل

قد يستغرب القارئ العربي دخول كلمة (أطلس) الأعجمية ذات الصفة الجغرافية، على مفهوم (الحضارة) أو (الثقافة)، وهما كلمتان مُحدَثتان نسبيًا في اللغة العربية التي هي «البحر في أحشائه الدرُّ كامنٌ»، فلو «سألنا الغوَّاصَ عن صَدَفاته» لوجدنا من المفردات ما يَسَعُ كلَّ شيء أو يكاد. فقد كانت عربية قريش ولغة القرآن الكريم مثالَ الحيوية في الأخذ والعطاء، منذ بدأت تستوعب كلام القادمين مع قوافل الشمال والجنوب، التي تجتمع في مكة، تقايض السلع ومفردات اللغات (الأعجمية) أخذًا وعطاءً، فبدأ (التعريب) و(التوليد) حتى صار بعضُنا يحسَب الدِّرهم والقِنطار والإستَبْرق والقِرطاس ومئات غيرها كلمات عربيةً؛ لأنها وردت في القرآن الكريم.

وكلمة Cultural في عنوان الكتاب صفة إنجليزية ترد في عدد من اللغات الأوروبية كذلك بالمعنى نفسه، وتفيد في جذرها اللاتيني معنى (التثقيف) و(التهذيب) و(التشذيب). وهي تقترب بذلك من جذر (الثقافة) العربي، كما في الفعل (ثقَّف) الغصنَ، أي أقام المعوجَّ منه ليَغدوَ رُمحًا، ومنه (التشذيب)، حتى أقرَّ مَجمع اللغة العربية كلمة (الثقافة)، لتفيد (العلوم والمعارف والفنون التي يُطلَب الحذقُ فيها)، كما يَرِد في المعجم. لكن كلمة (الحضارة) التي تؤدِّيها الكلمة الإنجليزية كذلك أقدم من كلمة (الثقافة)، وأشمل وأقرب إلى المعنى المراد في هذا الكتاب. فقد اتسعت الكلمة بمعناها كثيرًا منذ أن حدَّدها القطامي بقوله:

«ومَن تكن الحضارة أعْجَبتْه فأي رجال بادية تُرانا؟!»

وبعد أن توسَّع فيها المتنبِّي قليلًا بقوله:

«حُسْنُ الحضارة مجلوبٌ بتطرية وفي البداوة حُسْنٌ غير مجلوب»

ثم جاء مَجمع اللغة العربية كذلك ليقول إن الحضارة «مظاهر الرقي العلمي والفني والأدبي والاجتماعي، وهي مرحلة سامية من مراحل التطور الإنساني». وهذا هو موضوع كتاب (أطلس الحضارة الإسلامية)، والأطلس كتاب يورد الخرائط والرسوم والصُّوَر والأشكال والأرقام التي توضِّح (مظاهر الرقي ومراحل التطور الإنساني) التي حمَلها الإسلام إلى العالَم.

وكلمة (الترجمة) هي الأخرى دخيلة على العربية، ورُبما تسلَّلت من (تراكومان) الهيروغليفية التي غدت (ترجمان) فأضفى عليها ابن عربي ألَقًا شاعريًا صوفيًا في ترجمان الأشواق وهكذا حسبنا الكلمة عربية، لأن المتنبي قال في وصف جيش سيف الدولة:

«تجمَّع فيه كلُّ نسل وأُمَّة فما يُفهِم الحُدَّاثَ إلَّا التراجمُ»

من أجل هذا أُفضِّل عليها كلمة (الناقل) احترامًا لرأي جَدِّنا الجاحظ، الذي أعلن في شباب الحضارة العربية الإسلامية أن «الشعر لا يجوز عليه النقل».

والمترجمون (خَوَنة) في عُرف أدباء عصر الانبعاث في إيطاليا، وما زالت العبارة سيفًا مُصلتًا على رؤوس النَّقَلة طوال قرون سبعة عجاف. لكن المترجمين – النَّقَلة كانوا وما يزالون غيرواعين بما يقال عنهم، إلا من رحم ربي. وقد كنتُ طوال عقود أربعة عجاف وغير عجاف، أُعاقِر الترجمة والنقل، موزَّعًا بين الترجمة والتعريب، مُعذَّبًا بين شهوة الدقة في نقل العبارة الأجنبية بالحفاظ على (نكهة) اللغة الأخرى، وبين طلاوة العبارة العربية، دفعًا لتهمة الخيانة في التقصير في نقل النص، ورغبة في سَلاسة عربية سليمة تحاول أن تَدخُل القلب والعقل دون استئذان. ما أشقَّها مسيرةً على سيف النار!

وقد كان سندي الأول في كل محاولة، زوجتي (مريم، أُمُّ بشَّار)، وهي أستاذة في الأدب الإنجليزي كذلك، فكانت تنظر في صيغة (الترجمة) الأولى بصفاء ذهن لا يتيسر لي عند بَدْء العمل. فكانت تُصلِّح وتُصوِّب وتُقدِّم وتُؤخِّر، فيستقيم النص وتزول عنه (نكهة) العبارة الأجنبية. وهذا المسعى يطبِّق عبارة إنجليزية معروفة مُفادها «رأسان خيرٌ من رأس واحد»، والمقصود عقلان. ثم سَعِدنا في هذا الكتاب بعقل ثالث صاف شاعري المنزع، تمثَّل في جهود الزميل والصديق الكريم الدكتور رياض نور الله، خريِّج كمبردج ونزيلها، فكان يسير خلال السطور ويعمل فيها تقويمًا وتشذيبًا، فأُشفِق عليه وأُذكِّره بقول العماد الأصفهاني: «إني رأيتُ أنه لا [يَنقُل] أحدٌ كتابًا في يومه إلا قال في غده: لو غُيِّر هذا لكان أحسن، ولو زيد هذا لكان يُستحسن ... وهذا من أعظمِ العِبَر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر».

وقد اشترك في تأليف الكتاب رجل تسنُده زوجته كذلك –تغمَّدهما الله برحمته الواسعة– الرجل عربي فلسطيني مسلم، تخصَّص في فلسفة الأديان ودرَّسها في عدد من الجامعات الأمريكية والعربية، والزوجة أمريكية اعتنقت الإسلام واتخذت (لمياء) اسمًا عربيًّا يسنُد اسمها الأمريكي (لويس)، بعد أن تخصَّصت في تاريخ الفنون الإسلامية، ودرَّست الموضوع في جامعات عدَّة. وقد استند المؤلِّفان إلى عدد من المراجع العربية والأجنبية، أثبتاها في نهاية كل فصل. وكنتُ أَرجِع إلى المقتطفات في مظانِّها العربية جهد الإمكان، ولو أن بعض تلك المقتطفات إحالات إلى طبعات غير موجودة في المكتبات العربية، أو أنها مخطوطات في حوزة مكتبات أجنبية، ولم أوفَّق إلى نصوصها الأصلية. وهنا اقتربت (الخيانةُ) مني قليلًا، وفي مواضع محدودة؛ إذ كان علي أن أنقُل المنقول لأعود به إلى عربية أصيلة. وفي بعض الأحيان كان المؤلِّفان يتصرفان قليلًا في النصِّ المنقول بما يلائم الجملة الإنجليزية، ولا يؤثِّر في روح النص ومعناه. والضرورات تبيح المحظورات، حتى في مجال البحث العلمي، أو إنها لا تبيح!

في الكتاب جداول إحصاء وأرقام كثيرة، ليس بنا من حاجة إلى التذكير أنها تعود في التاريخ إلى قُبَيل زمن نشر الكتاب في نصه الإنجليزي في نيويورك، عام 1986. ولا شك أن بعض تلك الأرقام قد تغيَّر في السنوات العشر الماضيات، وهو أمر لا يمسُّ روحَ النص. ولا يمسُّ روحَ النص كذلك اختلاف الروايات في الأحاديث النبوية الشريفة،

المقدمة

التي حَرِصتُ في تدقيقها بالعودة إلى الصِّحاح والكتب المعتمدة في الحديث. أما الآيات القرآنية فهي طبق الأصل، ولو أن بعضها يرد أجزاءً من آية أو آيات، دعمًا لرأي يورده المؤلِّفان، ولا أرى في ذلك من ضير.

كما قد يلاحظ بعض القراء أنني أعتمِد الأحرف الأعجمية في رسم الأعلام الأعجمية، وهي لا تزيد عن أربعة حروف هي پ، ج، ڤ، گ، فهو ما اتَّخذه الأعاجم من فُرْس وتُرْك وهنود وأشباههم، منذ اعتنقوا الإسلام وتبنَّوا الحرف العربي. لقد وجد الأعاجم بحسّ لُغوي نادر أثبت صِحَّته في القرن الماضي العالمان اللُّغويان الألمانيان الأخوان (گرِم) Grimm، إذ وجَدا مخارج هذه الحروف الأربعة قريبة من أشباهها في العربية، فالكلمات الهندية والفارسية مثلًا: (پانى = ماء)، (گوشت = لَحْم)، (چادر = خيمة)، (نرڤانا = تأمل)، لا يمكن أن ترسم بالحروف العربية ويبقى نطقها صحيحًا، والاسم العَلَم الأجنبي (پول گوستاڤ) لا يمكن أن يُرسَم إلا بالحرف الأعجمي؛ لنحافظ على سلامة النطق. واختلاف الأقطار العربية في رسم الأعلام الأجنبية بحروف غير حروفها الأصلية جعل اسم الشاعر الألماني Goethe يُرسَم بأشكال ثلاثة هي (كوته - جوته - غوته)، والأسلم أن يرسم (گوته). ومما يتصل برسم الأعلام الأعجمية أنني أرجع إلى نطق الاسم الأعجمي بلغته الأصلية، لا كما أشاعه بعض النَّقَلة إلى العربية من لغات وسيطة، كأن يُنقل نص إغريقي عن ترجمة فرنسية مثلًا، فنجد (پلوتارخوس) تغدو (بلوتارك)، بينما سبقَنا العاملون في (دار الحكمة) برعاية الخليفة المأمون، فرسموها بما يقارب لفظها، مثل (فلوطرخوس)، كما قالوا (جالينوس) و(أرسطوطاليس)، فلا أقل من الحفاظ على ما سار عليه أجدادُنا في زمن لم تكن اللغات ميسورة للمتعلم كما هي اليوم.

وبعد هذا وذاك، أُقدِّم للقارئ العربي -المسلم وغير المسلم- صورةً متكاملةً عن الحضارة العربية الإسلامية، بَدءًا من الجذور الضاربة عمقًا، حتى مشارف الألف السادس قبل الميلاد، ووصولًا إلى مشارق الصين ومغارب المعمورة في أيامنا هذه. وقد اجتهدتُ أن تكون الصورة واضحة، فإن أصبتُ في اجتهادي كان لي أَجْران، وإن جانبتُ الصوابَ آمل ألا يقلَّ نصيبي عن أجر واحد.

والله ولي التوفيق

الدكتور/ عبدالواحد لؤلؤة
أستاذ الأدب الإنجليزي بجامعة الزيتونة الأردنية
عمَّان، صيف 1996م / 1417هـ

المقدمة

إن أغلب الباحثين الغربيين والمسلمين -ممن كتب عن الثقافة والحضارة في الإسلام- يتناولون موضوعهم من ناحية إقليمية أو من ناحية زمنية. والترتيب الإقليمي هو الأسلوب المفضَّل عند المؤلفين في الغرب، الذين يقسِّمون ما يعنيهم من موادَّ بحَسَب الأقاليم المختلفة، مؤكِّدين على السمات الخاصة في تاريخ منطقة بعينها. أما المؤلفون المسلمون فهم يُفضِّلون الترتيب الزمني، وينظِّمون معلوماتهم بحَسَب الأحداث الرئيسة أو الإنجازات، في مُدَّة واحدة أو مُدَد متلاحقة. ويكشف الجانبان عن قصور شديد لإهمالهما جوهر الثقافة والحضارة في الإسلام؛ فالترتيب الجغرافي يُغفِل ذلك العنصر الذي يوحِّد المناطق ويجعل منها أقاليم في عالَم الإسلام الواحد، فتُكوِّن بذلك أجزاء متكاملة من ثقافة الإسلام وحضارته. أما التناول الزمني فإنه يُهمِل ذلك العنصر الذي بَقِي قائمًا طوال أحداث العصور والأجيال، يَصهَر ذلك التنوع المذهل من ضروب التعبير، جاعلًا منه وحدة عضوية من الثقافة والحضارة. وثَمَّة كتب أخرى عن الإسلام تجمع ما بين الترتيبَين الجغرافي والتاريخي، لكنها لا تُفلِح إلا في الجمع بين مثالب الطريقتَين.

ويكمُن علاج هذه المثالب -بالطبع- في الطريقة الظاهراتية، التي تتطلَّب من المُراقب أن يترك الظواهر تتحدث عن نفسها دون أن يقحمها في إطار فكري مقرَّر سلفًا، كما يدَعُ صورة الجوهر الذهنية تنسِّق المعلومات أمام الفَهْم فتتعزَّز مصداقيتها بها. وقد كانت هذه الأساسيات في الطريقة الظاهراتية معروفة لدى العالِم المسلم أبي الريحان البيروني (440هـ/ 1048م)، فطبَّقها بدقة في كتابه الفذِّ عن ديانة الهند وثقافتها، وقد واصل المسلمون في تراثهم الطويل مراعاة أسس الطريقة التي وضعها البيروني، في دراساتهم وكتاباتهم المقارنة وكان (إدموند هوسيرل) Edmund Husserl أول من أدخل الطريقة الظاهراتية في الفلسفة الغربية، كما كان (ماكس شيلر) Max Scheller أول من أدخلها في دراسة الأخلاق والدين. ومنذ وقت قريب عادت هذه الطريقة إلى الرواج مع ظهور مجلة تاريخ الأديان Journal of the History of Religions، ومع تعيين (ميرثيا إلياد) Mircea Eliade في كرسي الديانة المقارنة في جامعة شيكاغو.

خلال جيل مضى أو أكثر، كانت دراسة تاريخ الأديان تفيد مما بلَغَته الفلسفة الظاهراتية من إنجازات، ومع أن كثيرًا من المؤلفين قد طبَّقوا الطريقة الظاهراتية في دراسة الديانات البائدة أو التقليدية الحية، فإن القليلين منهم قد طبَّقها في دراسة الديانات العالمية، وليس بينهم من طبقها في دراسة الإسلام. وكان البحث في الإسلام وقفًا على دارسيه الغربيِّين الذين يبدو أنهم لم يسمعوا بالظاهراتية قطُّ. فهم يجدون في (التوقف) الذي تتطلَّبه الظاهراتية ما يبدو لهم مطلبًا مستحيلًا، ذلك المبدأ الذي يفرض تعطيل جميع ما سبق من مفاهيم وأحكام وميول، في تفسير المعطيات في ديانة أو ثقافة أخرى وفي استخلاص معانيها. ومع أن المستشرقين استخدموا هذه الطريقة في تحقيق مخطوطات قديمة، أو التعرف إلى العاديات أو الأعمال الفنية ووصفها، فإنهم لم يُبرهِنوا على قدرتهم على (التوقف) عند تفسير الدين والثقافة في الإسلام. فالتزامهم بالعِرقية المعرفية، أو مفهومهم عن الواقع كما تفرضه العِرقية، يحملهم على قَبول الإقليمية مذهبًا في فَهْم التاريخ. ثم إن ما يُدعى بالطريقة العِلمية، التي لا تَعُدُّ صحيحًا إلا ما كان محسوسًا أو ماديًّا، أو كميًّا، أو ما يتناوله القياس من المعطيات، تربطهم إلى الصورة الظاهرة وتُعميهم

عن الجوهر الذي تُصوِّره الظواهر. وهم إذ يدرسون ديانات وثقافات أخرى، نجدهم في شك دائم في كل شيء، قيميًّا كان أو شاملًا، حاسبين حقائق كهذه أمورًا نسبية، بل شخصية. وأخيرًا، فإن الميراث العريق من العداوة والمواجهة بين الإسلام والغرب، مما ورثه هؤلاء المؤلفون، يشكِّل عائقًا آخر بوجه الموضوعية في التعامل مع حقائق الإسلام.

ومن ناحية أخرى، فإن المؤلفين المسلمين لديهم حساسية طبيعية تجاه قيم الإسلام؛ ولكنهم لم يبدؤوا بعدُ في الإفصاح تمامًا عن العَلاقة بين جوهر الإسلام وبين الظواهر التي رسَّخت وجوده في التاريخ، وما يفترض من إدراك وفهم لذلك الجوهر عند القارئ المسلم يدفعهم إلى تجاوز الحاجة إلى التحليل ويحدو بهم إلى التوجه نحو وصف الظواهر أو تقويمها، أو الاثنين معًا، دون تِبيان ماهية علاقتها بالموادِّ موضوع البحث.

إلى جانب ذلك، نجد في كتابات كثير من المؤلفين خلطًا بين الإسلام والمسلمين. ويَفهَم أمثال هؤلاء المؤلفين تراث المسلمين في الفكر والعمل والتعبير على أنه من مُكوِّنات الإسلام نفسه، تمامًا كما ينظرون إلى المسيحية واليهودية على أنهما لا تزيدان إلا قليلًا على تراثهما التاريخي. فحقيقة أن الإسلام يختلف عن تاريخه مسألة لا تسترعي انتباههم؛ لأنها تتعارض مع ما يعرفون عن تاريخ المسيحية واليهودية، فالتمييز بين الإسلام وتاريخه يبدو لذلك معارِضًا لافتراضاتهم التجريبية واتجاههم الذهني. ويبدو أنهم لا يدركون أن الإسلام -خلافًا للمسيحية واليهودية- قد وُلِد مكتملًا؛ مكتملًا في رؤية نبيِّه، مكتملًا في الوحي القرآني الذي تلقَّاه، ومكتملًا في السُّنة التي يمثِّلها. وليس هذا بقول أحد من البشر، بل هو نص قرآني (3 -آل عمران: 19)، (5 -المائدة: 4)، (2 -البقرة: 132) لذلك فهو وحي من الله. والقول: «إن الإسلام دين الله المكتمل الأول»، لا يجعله متماثلًا مع تاريخ المسلمين أيًّا كان، فهو المثَل الأعلى الذي يسعى إليه جميع المسلمين، ويجب أن يُعرَفوا به ومن خلاله؛ لذا فإن الموضوعية الحقَّة تتطلَّب التمييز بين الإسلام وبين تاريخ الإسلام، كما تتطلَّب النظر إلى الإسلام على أنه جوهر ذلك التاريخ ومعياره ومقياسه.

لا يقول الإسلام بعالَم آخر وشيك الوقوع وما يستتبع ذلك من إهمال للتاريخ، كما أنه لم يَدعُ إلى الانسحاب من العالَم والتاريخ باتجاه شطحات الوعي الذاتية، بل إنه يدعو إلى الانشغال الكامل بمسيرة التاريخ بوصفها المجال الوحيد لبلوغ السعادة أو الشقاء. ورؤية الإسلام -كما نجدها عند النبي (ﷺ)- تدعو إلى الأخذ بناصية التاريخ وتوجيهه لإنتاج الثقافة والحضارة، لذا كانت هذه الرؤية ذات عَلاقة بالِغة بتاريخ الإسلام؛ لأن ثقافة الإسلام وحضارته قد نبعتا منها في الواقع، ومنها تستمدان الغذاء والدعم المستمر في جميع مجالات السعي الإنساني. لكن هذه الحقيقة لا معنى لها من دون تحليل يُبيِّن إن كانت الظاهرة موضوع البحث تحقيقًا أو تقريبًا أو خروجًا على تلك الرؤية الأساس. والمحتوى الدقيق لهذه العَلاقة -أي أثر الإسلام على تجلِّياته في التاريخ- ما يزال بحاجة إلى تمحيص سليم وتحليل كاف.

وهذا الكتاب بداية في ذلك الاتجاه، فالبحث في الإسلام وحضارته مسألة مناسبة وجديدة في آن معًا، فهي لا تهمل العَلاقة بين المكونات الحضارية والإسلام، ولكنَّها في الوقت نفسه لا تساوي بين الإسلام وأية مكونات تاريخية. هذه دراسة تنظر إلى جوهر الإسلام من حيث عَلاقتُه المطلَقة بالقرآن والسُّنة، وتهدف إلى تقديم المكونات الحضارية بوصفها تجسيدًا لذلك الجوهر في المكان والزمان.

وقد يصح القول إن هذا الكتاب أول تطبيق للطريقة الظاهراتية في دراسة الإسلام وحضارته بوجه عام، فهو يبدأ بدراسة المِهاد، أي الواقع التاريخي الذي وُلِد فيه الإسلام دينًا وثقافة وحضارة، ثم ينتقل إلى تعريف جوهر الحضارة الإسلامية أو التوحيد، وهو لُبُّ المبادئ وأولها، ويقوم هذا على رؤية ذهنية لعقيدة الإسلام. وبعد تحليل الجوهر يأتي تحليل ما يعطي العقيدة شكلها في نَسَق من الأفكار، ومن التطبيقات المُثلى، ومن المؤسَّسات الاجتماعية. وقد تضافرت هذه الجوانب الثلاثة في تكوين الثقافة في الإسلام، فمنحتها شخصية وشكلًا، ورسمت في أعماقها وأبعادها، وساعدت في تثبيت وترسيخ تطورها في التاريخ.

وأخيرًا تأتي تجليات الإسلام في ظواهر الثقافة والحضارة عن طريق استعراض صنوف الفعل والفكر والتعبير، فتقدِّم وصفًا منظَّمًا لما يتصل بها من حقول النشاط البشري. ويعالج الفصلان التاسع والعاشر تلك التجلِّيات في مجال الفعل، كما تعالج موادُّ الفصل الحادي عشر إلى الفصل الثامن عشر تجليات الإسلام في مجال الفكر، أما الفصل العشرون وحتى نهاية الكتاب في فصله الثالث والعشرين، فإنها تعالج تجليات الإسلام في مجال التعبير.

وقد اختِيرَت هذه الموادُّ من أنواع لا حصرَ لها من المعلومات، وكان المبدأ الذي يقود هذا الاختيار اقتراب المادة من الهدف، أو الدرجة التي يمكن القولُ فيها إن تلك المعلومات التاريخية كانت تمثيلًا لجوهر العقيدة. ومن هنا كان السعي في كل فصل نحو الربط بين مادته والتوحيد، وهو جوهر الحضارة الإسلامية، ونحو تِبيان موقع الجوهر أساسًا وعاملًا في تكييف التجليات موضوع البحث. ومن وجهة نظر ظاهراتية، يكون الجوهر مبدأً كافيًا لفهم التمثيل والتجليات معًا.

وأخيرًا، من الضروري تقديم تفسير لعنوان هذا الكتاب، فكلمة (أطلس) يمكن أن تشير إلى كتاب خرائط يُمثِّل خصائص جغرافية ذات صفة طبيعية أو زراعية أو حضرية أو سياسية أو اقتصادية أو عسكرية، لكن الجغرافية الثقافية ما تزال في حداثتها، وطرق ترجمة الظواهر الثقافية إلى شكل منظور ما تزال بعيدة عن الرسوخ والاكتمال. ورسم خرائط المعلومات الثقافية مسألة صعبة، سببها التعقيد والتنوع في الموادِّ المكوِّنة والعناصر المؤثِّرة في تطورها. ونحن إذ ندرك أخطار مثل هذا العمل الرائد، فقد قمنا بهذه المحاولة لإخراج (أطلس) شامل للثقافة والحضارة في الإسلام. ويمكن استخدام كلمة (أطلس) كذلك في وصف كتاب يضمُّ معلومات مُمثَّلة في أشكال منظورة عن موضوع بعينه. ومما يزيد في تدعيم العنوان أن الكتاب ينطوي على وفرة من المعلومات حولَ الثقافة والحضارة في الإسلام، ممثَّلة في جداول وخرائط وتواريخ وأرقام وصور.

ومن الطبيعي أن هذه الدراسة ليست بمنأًى عن النواقص التي لا تخلو منها الأعمال (الأولى) في العادة، ولكننا نأمل لها أن تفتح الطريق نحو فَهْم أفضل للإسلام وما أنتجه من ثقافة وحضارة، وأن تُحرِّك الآخَرين للسير بهذا الجُهْد نحو الكمال.

كلمة حول التواريخ والإحالات القرآنية

حيثما يكون الأمر ممكنًا ومناسبًا، فإننا نُورِد تاريخَين اثنَين للإشارة إلى سَنة وفاة شخص، أو زمن، أو حدث، أو فعل، أو حدود مُدَّة من الزمان. يشير التاريخ الأوَّل إلى السَّنة الهجرية من التقويم القمري الذي بدأ عام 622 م بقيام الجماعة الإسلامية الأولى في المدينة، ويشير التاريخ الثاني إلى ما يعادل الأوَّل من السنة الميلادية. وعند ورود تاريخ واحد فإن ذلك يشير إلى السنة الميلادية، وعند ورود الحرفَين ق.م بعد تاريخ مُفرَد، فإن ذلك يشير -كما هو معروف- إلى سَنة سبقت ميلاد المسيح.

وتَرِد الإحالات القرآنية عادةً بين قوسين، يشير الرقم الأول إلى السورة مع ذكر اسمها، ويشير الرقم الثاني إلى الآية.

القسم الأول

السيـــاق

الفصل الأول

بلاد العـــرب
المِهـــــاد

الفصل الأول

بلاد العرب: المِهاد

تكشف النظرة الأولى إلى خارطة جنوب غرب آسيا (الخارطة رقم 1) عن عدَّة حقائق ذات مغزًى. فثمة كتلة هائلة من الأرض -هي شبه الجزيرة العربية- تتدلَّى من آسيا نُزُلًا إلى البحار المحيطة. وهي تبلغ في عرضها الأقصى زُهاء 1200 ميل، وفي طولها الأقصى زُهاء 1500 ميل، وتتعلَّق بآسيا برقعة ضيقة تتوسَّطها صحراء ويحيط بها هلال من أرض خصيبة خضراء. وعند النهاية الغربية من الهلال التي تحاذي البحر المتوسط، يهطِل من الأمطار ما يكفي لنموِّ الأعشاب والحبوب والخضار، وفي الأعالي من تلك الأصقاع تنمو أشجار الزيتون والفاكهة، وعند الأقاصي الجنوبية من ذلك الهلال حيث تلتقي آسيا بإفريقيا، أي عند مضيق السويس وخليج العقبة، يتضاءل المطر حتى ينعدم، جاعلًا من الصحراء امتدادًا حتى شاطئ المتوسط، وعند النهاية الشرقية، يبعث الخضرةَ سيلُ ماء ذو شُعبتين: دِجلة والفُرات، ينبع هذان الرافدان من المرتفعات الواقعة وراء الحافة الشمالية، ويتعرَّجان في مسيلهما فيما دون ذلك من سهول حتى يُفرغا حمولة المياه في الخليج العربي، ذلك الامتداد المائي الذي يحد شبه الجزيرة من طرفها الشرقي. وإلى الشمال والشرق، وراء ذلك الهلال الأخضر الذي يُتوِّج شبه الجزيرة، تقع جبال وَعِرة لم يستطع تخطِّيها أهل شبه الجزيرة قبل الإسلام. وعلى الجوانب الأخرى تمتد المياه: البحر المتوسط إلى الشمال الغربي، والبحر الأحمر إلى الغرب، وبحر العرب والمحيط الهندي إلى الجنوب والشرق. وعلى الشواطئ الغربية من شبه الجزيرة تقوم سلسلة من الجبال تُدعى باسم الحجاز، أي المرتفعات الفاصلة التي تحجز الهضبة الصحراوية في الوسط عن الساحل، وتجتذب قدرًا من الأمطار يتزايد باتجاه الجنوب، فيُحيل الزاوية الجنوبية الغربية خضراء خصيبة مثل امتدادات الشمال. وفي هذه الزاوية تقع اليمن، واسمها يُفيد (الأرض المبارَكة) أو (بلاد العرب السعيدة) كما عرَّفها الأقدمون؛ وما ذلك إلا بسبب خصوبتها وقدرتها على إدامة الحياة.

من الناحية الجغرافية، تضم (بلاد العرب) شبه الجزيرة، إضافةً إلى (الهلال الخصيب) الذي يشكِّل منها التاج والعنُق. ويمثِّل كل من الجزءين استمرارًا للآخر، ولا يمكن تَصوُّره من دون قرينه. وتمتد صحراء شبه الجزيرة إلى الهلال في شدَّة تقوسه، فيتضاءل طرفاه حتى الزوال، كما تتوغَّل في وسط الهلال شمالًا، فتزيد من اتساعه وتجعله لا ينفك من التداخل معها. لذا سنبدأ منذ الآن بإطلاق تسمية (بلاد العرب) على شبه الجزيرة العربية والهلال الخصيب معًا، خلافًا لما جرَت عليه العادة، وإضافة إلى ما تقدَّم، ثمة فيض من الأدلة يدعم هذه التسمية الجديدة.

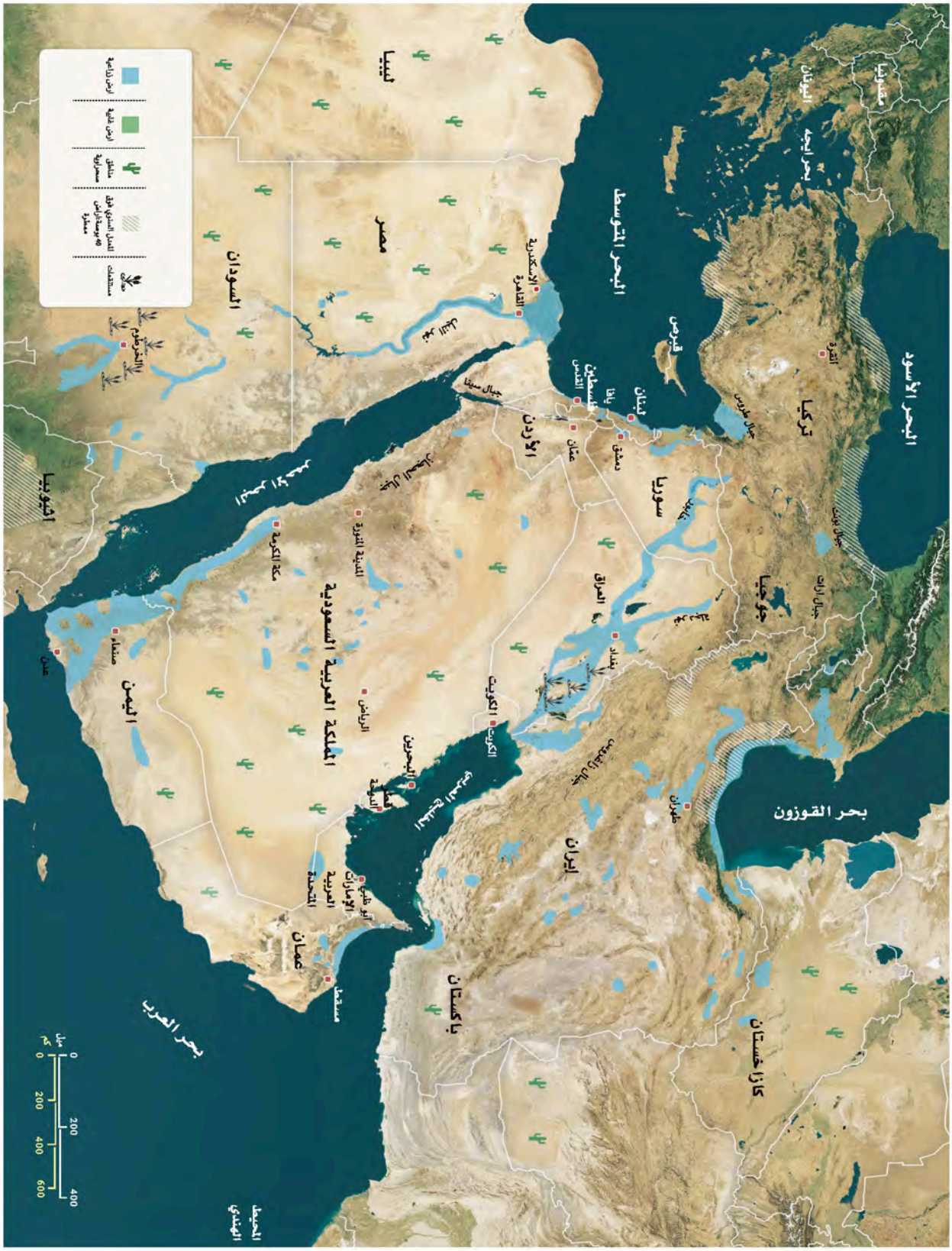

الخريطة رقم (1) بلاد العرب: صورة الأرض والدول الحديثة.

صورة الأرض

تتكوَّن رُقعة الأرض موضوع البحث من صحراء وأرض خصيبة معًا. وتُعَدُّ الصحراء الجزء الرئيس من تلك الرقعة، كما يُعَدُّ الهلال في الشمال والحجاز في الغرب واليمن في الجنوب الغربي، الجزءَ الأصغر في النهايات من تلك الأرض. وقد كانت الحياة في هاتين المنطقتَين وتاريخهما تفاعلًا مستمرًّا بينهما. ولا شك أن صورة الأرض في المنطقتَين مختلفة بل متضادَّة، فالصحراء ضئيلة السكان، والأرض الخصيبة كثيفة السكان تزدحم بالناس. لكن الواحات الكثيرة تنتشر في الصحراء، وفيها خضرة كثيرة ومياه وفيرة، تتوزع في الآماد وتحدِّد مَعالِم طرق المواصلات بين المناطق. فالماء وما يبعث من خضرة لم يكونا قطُّ على مَبعدة تجعل الحياة مستحيلة، أو تجعل الوعي شديد الاختلاف. ومن ناحية أخرى كانت الصحراء قريبة المَنال دومًا، إذ لم تكن على مَبعدة تجعلها (غريبة). وفي رُقعة الأرض العربية هذه يسود التداخل، لا تنافر الأضداد.

اتَّسمت الخضرة بتنوع وافر، ففي المناطق الجبلية في الشمال الغربي والجنوب الغربي توجد وديان صغيرة مزروعة بالحبوب والخضار، تكتنفها جبال مغطاة بأشجار فاكهة نَفضية وغابات صنوبر دائم الخضرة، وفي أقاصيها الأكثر ارتفاعًا تغطيها صخور جرداء أو ثلوج الشتاء. وكانت البِّطاح الشمالية الشرقية مكسوَّةً بخضرة دائمة، استوائية الكثافة؛ حيث لا تتركز المزروعات المُعَدَّة لإنتاج الطعام للبشر والعلف للماشية. كما كانت الأقاصي الجنوبية تُشبه الأدغال؛ حيث المستنقعات الكثيفة تختلط فيها مياه النهر والبحر، وتنعم الطيور وحيوانات البَر والماء بفردوس طبيعي استوائي. وكانت أشجار النخيل في كل مكان، كذلك الحبوب والقمح والذُّرَة البيضاء، وجميعها من الأطعمة الأساس في المنطقة بأَسْرها. ولا شك أن المناطق الخضراء كانت تنتج أطعمة أخرى كثيرة، ولكنها كانت جميعًا معروفة لدى أهل الصحراء، الذين كانوا يزرعونها في الواحات أو يستوردونها مجفَّفة. والفرق هنا في الكم، فالمنتوجات الزراعية في كلتا المنطقتين كانت هي نفسها، معروفة هنا وهناك. وإذا لم يكن هذا صحيحًا حرفيًّا في قلب المنطقتين، فإنه كان صحيحًا قطعًا في الأطراف؛ حيث لم يكن بمقدور أحد أن يُدرك بوضوح أين تنتهي منطقة وتبدأ أخرى. وخلافًا للتصور الشائع بأن الصحراء كثبانُ رمل تخلو مما ينمو أو يعيش، فإن الصحراء العربية تقدِّم صنوفًا كثيرة من النبات تقتات عليها أنواع كثيرة من الحيوان، كلُّها يوجد في المنطقتين؛ نادرة في هذه، وافرة في تلك.

في حدود عام 1500 ق.م ظهر الحصان في بلاد العرب، مخلوقًا جميلًا وأداة حرب مريعة، وقد دخل الحصان سلاحًا في أيدي (أهل الجبال) الذين أغاروا على المنطقة في موجات متعاقبة بين 1500 و900 ق.م. وقد كان هؤلاء خليطًا جديدًا من أقوام استقرت في الأراضي الواقعة إلى الشمال من الهلال الخصيب، من آسيا الصغرى وبلاد القوقاس، أثارتهم بقايا هجرة أوسع من القبائل الآرية من الغرب والشرق. وقد غزَت القبائل الآرية بلاد الإغريق القديمة والأناضول إلى الشمال الغربي، إضافةً إلى أرمينيا وبلاد فارس إلى الشمال الشرقي، وقد عاث هؤلاء بأمن المنطقة واستقرارها لقرون عِدَّة، فقد كان المحارب على صهوة جواد، أو في عربة يجرُّها حصانٌ، خَصْمًا يصعب على الجنود المشاة إيقافه. ولم يَمضِ وقت طويل حتى غدَا الحصان عُدَّة المغلوب في القتال كذلك. والواقع أن الحصان قد أضحى في بلاد العرب موضع إعجاب عظيم، وكانت أنساب الخيول تُحفَظ وتُستذكَر على طولها؛ لإثبات أصالة الخيل ونقائها، كما كانت السباقات الباذخة تُقام للتدليل على فائدتها في السِّلم للرياضة والمباهاة بجمالها. ولا غرابة بعد ذلك أن تكون اللغة العربية قد أسبغت على الحصان أكثر من مئتَي اسم!

ولأن منبت الحصان في غير تلك المنطقة، فإنه غير متكيِّف مع طبيعة أرضها، فهو سريع في العَدْو لكن لأمد قصير، وهو يحتاج إلى وجبات منتظمة من العشب والحبوب، ويُكثِر من شرب الماء، وحوافره تحتاج إلى أرض صُلبة نسبيًّا ليجري عليها؛ فهي تغور في الرمل وتحد من سرعته كثيرًا. لكن البعير، من ناحية أخرى، متكيِّف مع المنطقة تمامًا؛ فخِفافُه مسطَّحة وكأنها قد هُيِّئت لكي لا تغوص في الرمل، ومَعِدته واسعة بما يكفي لتخزين الطعام لمدة أسبوع، وله سَنام من الشحم يُكوِّن مخزونًا إضافيًّا من الطعام، وله قدرة على البقاء بلا ماء لمدة تبلغ أسبوعين أو أكثر، ويتحمل البعير فِقْدان ماء الجسم أكثر من غالبية اللبائن (وقد يبلغ ذلك 30 بالمئة من وزنه الكليّ). وإذ يستطيع البعير شرب ما يبلغ 25 غالونًا من الماء كل مرَّة، يُسرع في دفعه إلى أجزاء جسمه بالتساوي، فإنه يحافظ على نسبة وجود الماء في دمه تحسبًا للجفاف، وهذا يسمح لخلايا الجسم أن تفقد ما لديها من ماء؛ إذ يستمر الدم في أداء وظيفته بوَجْه طبيعي، وبذلك يستطيع البعير أن يسير مسافات طويلة في صحراء لا ماء فيها، وكلما طالت مسافة ما تحتمل النِّياق قطعها دون ماء، زادت نسبة الماء والملوحة في حليبها، وهو ما يريده حاديها من البشر، ثم إن البعير حيوان يحمل من الأثقال ما يبلغ 270 كيلوجرامًا لمسافة 50 كيلومترًا في يوم واحد.

وقد بدأ تدجين الجمل في بلاد العرب في حدود عام 2000 ق.م، إذ عُثِر على بقايا بعير في مواقع حضَرية قديمة في منطقة يعود تاريخها إلى العصر البرونزي الأوسط، كما وُجِدت مخلَّفات إبل من (باكتريا) (أقصى شرق بلاد فارس) في (شاه تيبه) في إيران وفي تركستان، يعود تاريخها إلى ألْف سنة قبل ذلك، أي إلى نحو 3000 ق.م، وربما جرى تدجين الإبل بصورة متفرقة وفي مناطق غير حضَرية قبل ذلك التاريخ بكثير في كِلتا المنطقتين. وتعود أقدم الكتابات المسمارية أو تماثيل الإبل إلى حدود 1100 ق.م، كما تشهد بذلك المسلَّة المكسورة وأقدم اللقى في (تل حَلَف)[1]، ومنذ ذلك التاريخ فصاعدًا أصبح للإبل دورٌ بالغ الأهمية في الحرب. وقد تحالف العِبرانيُّون وأهل مديَن وحوريب وغيرهم من قبائل العرب في الشمال الغربي ودخلوا فلسطين في القرن الثاني عشر ق.م على ظهور الإبل، وقد فعل العمُوريُّون مثل ذلك في اندفاعهم نحو الهلال الخصيب، قبل ذلك بستة أو ثمانية قرون. وكما حدَث للحصان والأسد، فإن اللغة العربية قد أسبَغَت على البعير فَيْضًا من الأسماء، تشير إلى عمره ولونه وخصائصه الجسدية وأَرُومته، وعدد ما أنجب، وعدد ما حملت النوق أو أرضعت.

التوزيع السكانيُّ

كانت الأقوام التي استوطنت الرقعة الجغرافية لبلاد العرب تنتمي إلى جنس واحد من البشر، هو الجنس القوقاسي، أو الآسيوي الغربي، وهو ما يُعرف بالجنس (السامي)، وهذه التسمية من اختراع الباحثين في العهد القديم في القرن الثامن عشر، الذين انتبهوا إلى وجود أقوام ولغات وحضارات (سامية) خلاف العِبرية والعربية والأثيوبية، وكان ذلك من نتيجة الكشوف الآثارية في أصقاع الهلال الخصيب. فقد راح (يوهان گوتفريد آيخهورن) Johann Gottfried Eichhorn، يهتدي بقائمة المواليد في العهد القديم (سفر التكوين، 10)، فأطلق اسم (الساميِّين) على ذُرِّية (سيم) أو (شيم) بن نوح، الذين حَسِبهم العِبرانيِّين؛ ذُرِّية إسحق بن إبراهيم، كما أنه حَسِب العرب من ذُرِّية إسماعيل شقيق إسحق الأكبر، ومعهم جميع الأقوام الأخرى في الشرق الأدنى القديم، الذين كانوا يتكلمون لُغات هي شقيقات العِبرية والعربية، مما لم يكن يوجد لها اسم آخر[2]. ومع أن هذه التسمية تكاد تكون مقبولة على نطاق عالمي، فإنها غير جديرة بذلك لسببين: الأول أنها تستند إلى قول العهد القديم: «إن الطوفان كان حدثًا كونيًّا شاملًا، هلك فيه جميع البشر باستثناء نوح وأبنائه»، وهو قول لا يدعمه سوى الإيمان بحَرفية كلام العهد القديم[3].

الخريطة رقم (2) قبائل العرب قبل ظهور الإسلام

نَسب القبائل العربية

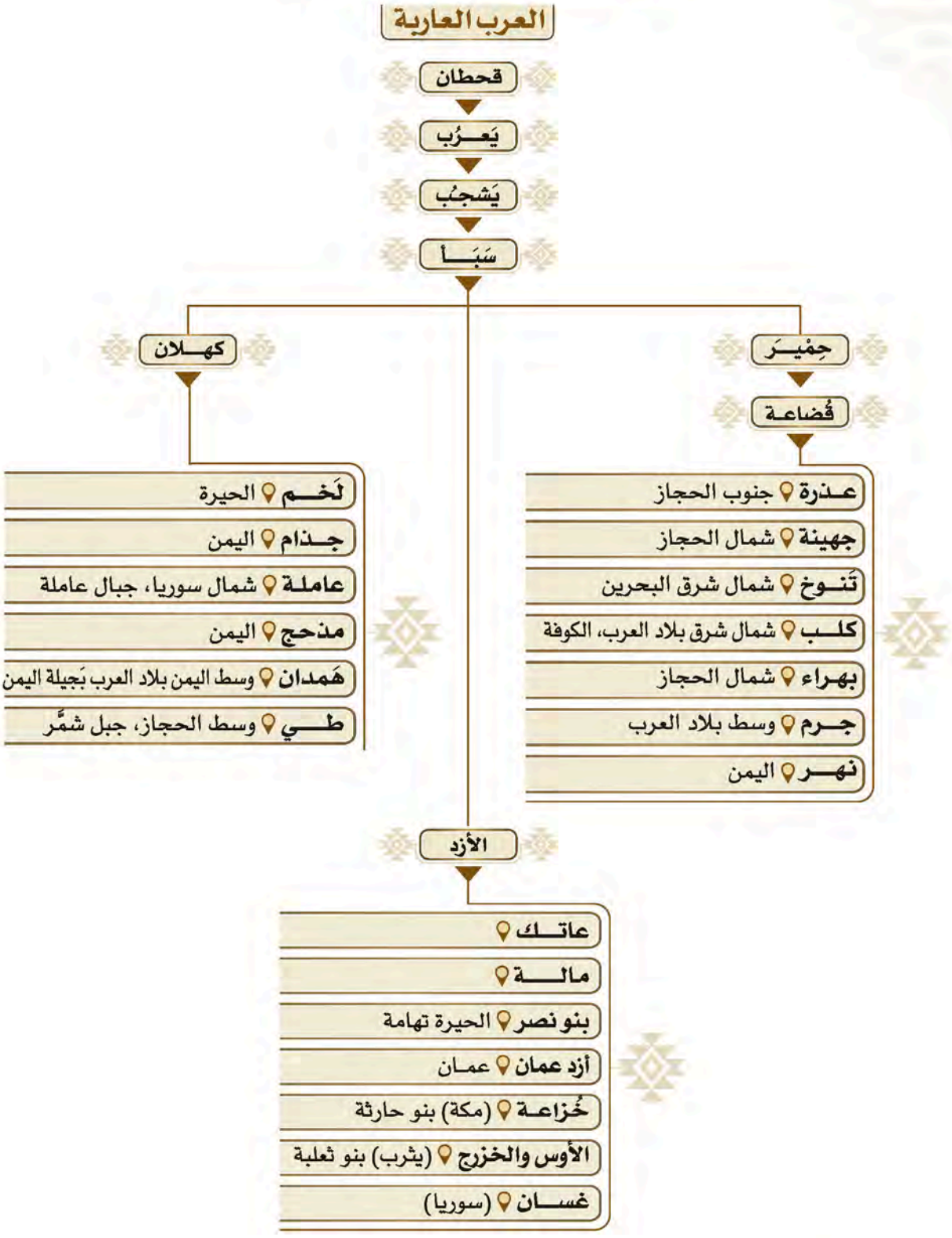

العَـرب المُستعربة (١)

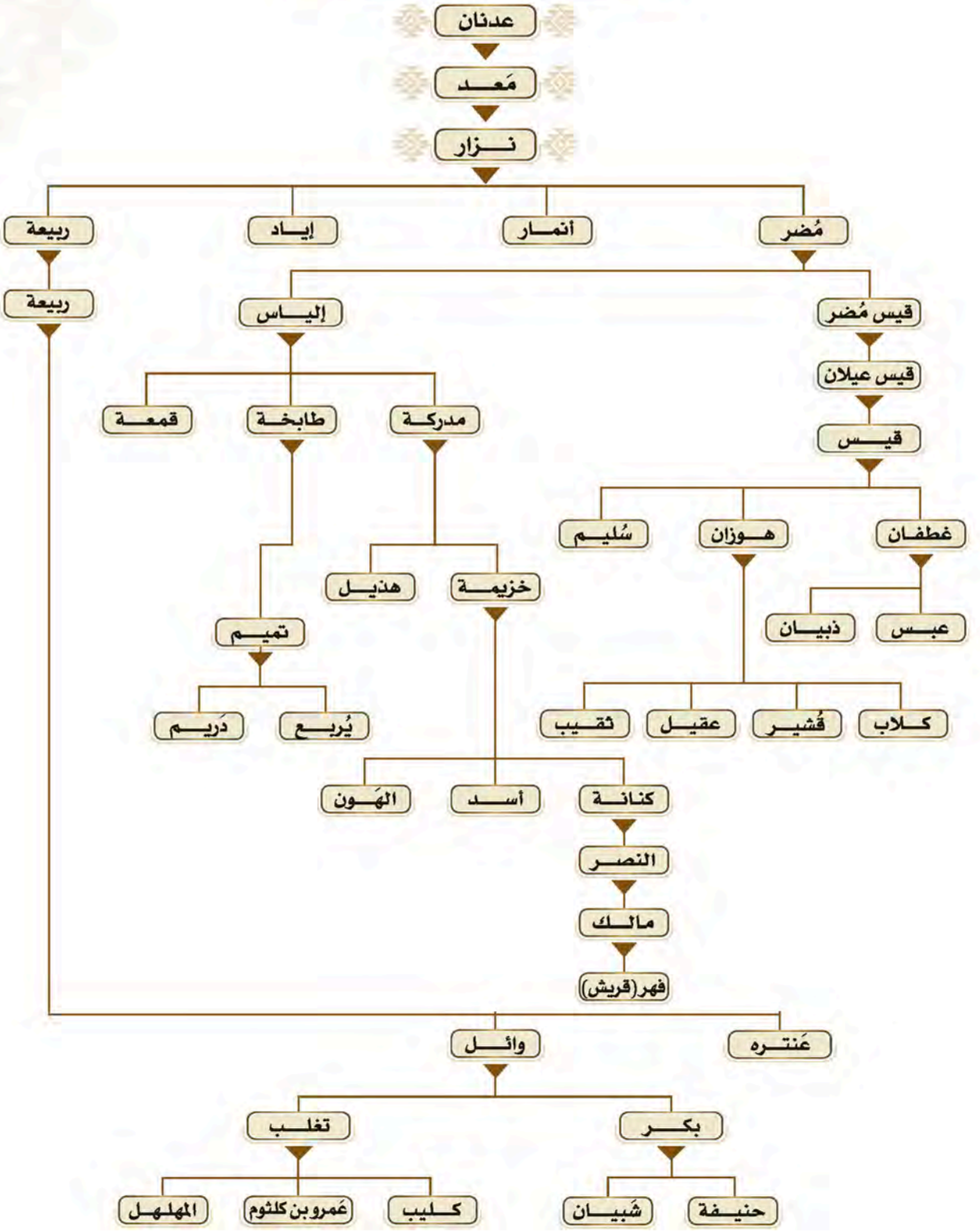

العَـرب المُستعربة (٢)

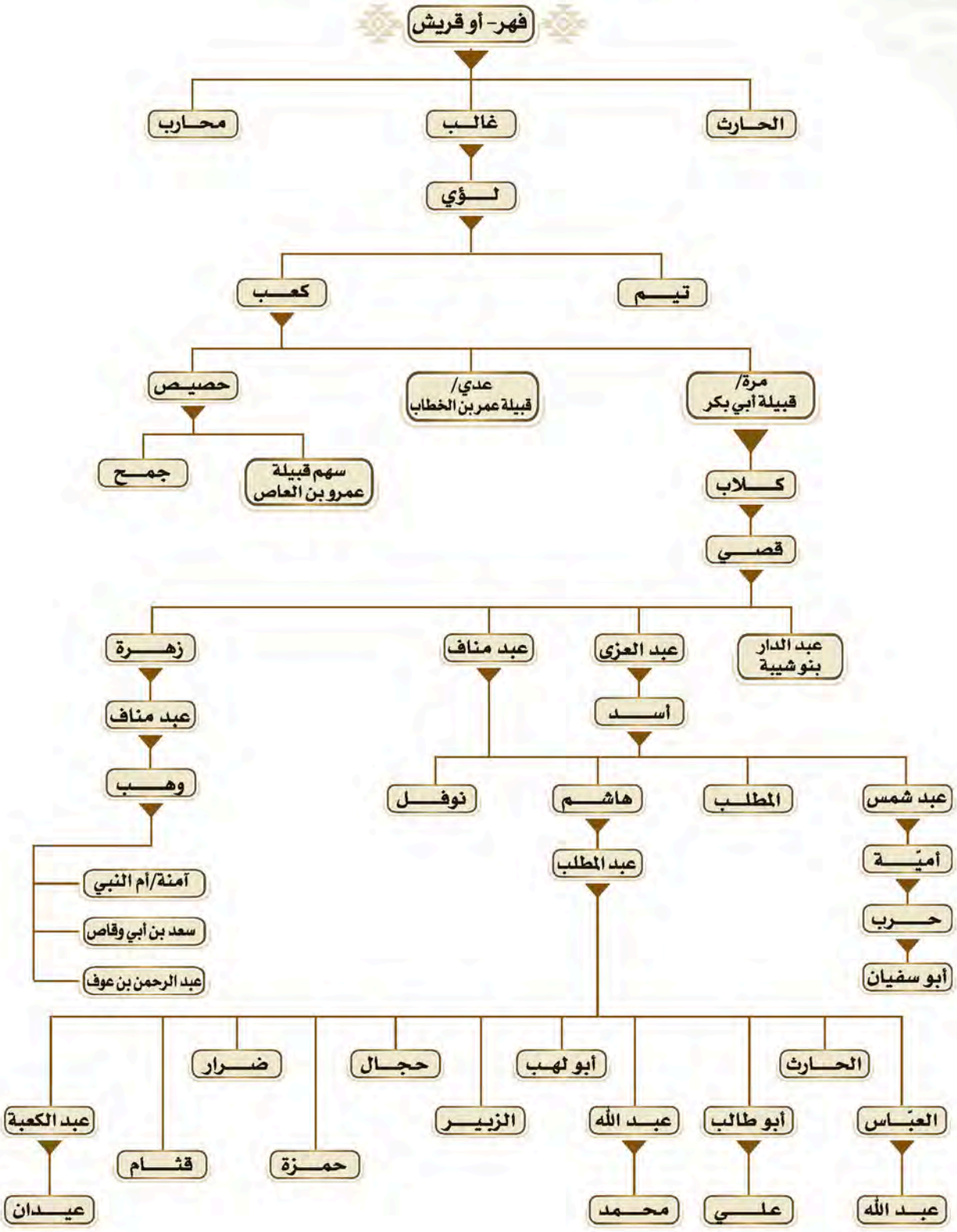

ومع أنه من المؤكَّد أن مدينة (أوريم) واسمها التَّوراتي (أور) التي تقع في الجنوب من بلاد ما بين النهرَين، قد ازدهرت في فترتين من التاريخ يفصل بينهما طوفان حدث نحو عام 3000 ق.م. فليس ثمة من دليل على أن طوفانًا شاملًا قد وقع في ذلك التاريخ. لذا يجب النظر إلى كلام العهد القديم في نطاق أضيق، وتبيان أنه ينطبق على مواقع نوح وجماعته وحسبُ. والسبب الثاني أن ليس بين الأقوام المسماة (سامية) مَن كان ينظر إلى نفسه قطُّ في إطار هذا التحدر من نسل (شيم) بن نوح، باستثناء المسيحيين واليهود في الغرب الحديث. هذه نظرة تقوم على العِرقية، وهي من ابتداع أوروبا الرومانسية.

ولا شك أن شعوب الشرق الأدنى القديم كانت تنظر إلى نفسها شعوبًا في إطار اللغات التي تتكلَّمها، والأديان والثقافات التي تنتمي إليها، أو النظام السياسي الذي تعيش في ظلِّه، دون نسل تحدَّرت منه أو عِرْق. ولم يفعل غير ذلك سوى العِبرانيِّين، أما النظرة العِرقية فلا وجود لها عند سواهم في بلاد العرب.

الصورة (1-1) عمود مطعم من تل العبيد (حجر جيري، محار، صدف)، حوالي 4000 ق.م.

كان الذين يعيشون في تلك الرقعة العربية من أهل المنطقة جميعًا بالدرجة الأولى، وكانوا ينتقلون من جزء منها إلى أجزاء أخرى، ولكن ليس من خارج المنطقة إلى داخلها، وليس من داخلها إلى العالَم الخارجي، باستثناء ما حدَث في العهد الفينيقي (1730-1570 ق.م) من الخروج إلى مصر، أو ما حدَث في عهد الإسلام.

حركات السكان الداخلية من التنقل في الصحراء إلى الاستقرار في الزراعة

في حدود تلك الرقعة الجغرافية، لم يكن السكان في حالة استقرار قطُّ. فقد كان الانتقال دائمًا من الأراضي الزراعية إلى المراعي، ومن المراعي إلى الأراضي الزراعية، تاركًا آثاره في كل مرحلة من تاريخ المنطقة. والواقع أن تاريخ المنطقة برُمَّتِها لا يزيد على كونه الأسباب والنتائج لمثل تلك الحركات السكانية المحلية.

ولم تكن الصحراء العربية يومًا بُقعة مهجورة خالية من السكان، فقد كانت واحاتُها وبِقاعُها الأخرى المتاخِمة للمناطق الخصبة سندًا دائمًا للسكان. صحيح أن جَدَب الصحراء قد فرض نظام حياة شديدة القسوة أدى إلى تشكيل طبيعة بشرية وتطوير صفات ذهنية واجتماعية، أضْفَت على أهلها كثيرًا من مميزاتهم الخاصة. فقد كانت رياضة النفس تتطلب من المرء السيطرة على غرائزه سيطرة الناسك، والارتفاع بالكرم والضيافة إلى منزلة الفضائل الأصلية، ومراعاة التلاحم الشديد في الولاء الجَمعي، والاهتمام بالدقة في الوصف، والتعمق في تحليل الذات، والنزوع إلى التأمل، والانتشاء بالرجوع إلى الخيال عن طريق اللغة - هذه الخصائص المميِّزة، وكثير غيرها تدين جزئيًّا في تطورها الفذِّ في بلاد العرب إلى ظروف الحياة التي تفرضها الصحراء. فجَدَب الصحراء إذن، لم يجعل الحياة مستحيلة، ولو أنه ربما قد ساهم في تكوين ضغوط

سكانية جعلت الهجرة أمرًا لا مفرَّ منه. وربما كانت مثل تلك الضغوط سببًا في تدفق الهجرة إلى الأراضي الخصبة المتاخمة. غير أن سيل الهجرة من الصحراء إلى المناطق الخصبة كان مستمرًّا طوال العصور.

وقد كان هذا التدفق البشري من الصحراء إلى الأراضي الزراعية سببًا في ظهور تراث واسع من الأدب، يصف العَلاقات بين الفلَّاح والراعي، وأشهر تلك الأوصاف حكاية (دمُوزي) و(إنكيمدو) التي تعود إلى أقدم العصور السومرية، وقد وصلت إلينا في صيغة قصة حُبِّ اثنين من الآلهة، يسعى كلاهما في طلب وُدِّ إلَهة واحدة. والذي لدينا من القصيدة يبدأ بافتراض أن الإلَهة (إنانَّا) سبق أن منَحت وُدَّها إلى الفلَّاح (إنكيمدو)، لكن شقيقها (أوتو) يحاول إقناعها أن تتزوج (دمُوزي) الراعي، وترفض (إنانَّا) في استعلاء، قائلة إن زواجها من (دمُوزي) دون رفعتها. ويأتي (دمُوزي) ليُقدِّم نفسه ويسرُد مزاياه إزاء ما لدى الفلَّاح (إنكيمدو)، ويؤدِّي هذا إلى ابتهاج (إنانَّا) التي تؤخذ بفصاحة (دمُوزي) وتقتنع بأهليته أن يكون زوجًا لها. وإذ يبتهج الراعي نجده يندفع إلى تحدِّي الفلَّاح لمنازلته، لكن الفلَّاح يرفض، ويتبع ذلك مصالحة وسعادة للجميع، ويسمح الفلَّاح للراعي أن تسرح قطعانه في مزارعه، كما يدعو الراعي الفلَّاح إلى عُرسه، ويتبادلان الهدايا في مودَّة واحترام[4].

ومن الطبيعي أن قدوم الرعاة على السكان المستقرين في المناطق الزراعية لم يكن في مناسبات أخرى مثل هذا القدوم السِّلمي، فثمة ترنيمة سومرية إلى (إله الغرب) تشتمل على عبارات حربية تصف العمُوريِّين (آمُورو) الذين هاجروا من الجزيرة العربية إلى بلاد ما بين النهرَين وسوريا، في حدود عام 2000ق.م.

رفيقه السلاح
ولا يعرف الهوان
ويأكل اللحم النيِّء
ولا دار له مدى العمر
ولا يواري رفيقه الميت الثرى [5]

لكن هذا كان استثناء، فالحقيقة التي لا مِراءَ فيها أن هذه الهجرات كانت تحدُث ببُطء على مُدَد طويلة من الزمان، كان التداخل بالتزاوج والتجانس خلالها هو القاعدة، فلم تكن القبيلة تنتقل برُمَّتها كما يتحرَّك جيش حديث بوسائله الآلية، بل كانت الحركة بطيئة دائمًا، تمتد عبر أجيال يتعرَّف خلالها الكثير من أفراد القبيلة المنتقلة على حياة الاستقرار، يتعلمون الحِرَف والصناعات اليدوية والزراعة، ويتزوَّجون من أهل البلاد فيستقرون ويمدون جذورهم في الأرض الجديدة. ومن الواضح أن يكون بعض أفراد القبيلة المهاجرة قد تخلَّف عنها، وغَدا مصدرًا بشريًّا لتغذية القبيلة، يُجسِّد لغتها أو لهجتها، ويُديم عاداتها وثقافتها وقِيَمها.

كان أهالي الصحراء العربية يهاجرون إلى الهلال الخصيب في الشمال منذ أقدم العصور، وكانوا يرحلون سيرًا على الأقدام أو على ظهور الحمير في طريق يدور حول الأصقاع الشمالية من الجزيرة باتجاه عقرب الساعة، وكانت الأقسام الغربية من شبه الجزيرة هي الأكثر ازدحامًا بالسكان. ومن تلك المنطقة كان طريق الهجرة يتجه اتِّجاهًا طبيعيًّا نحو الشمال قُدُمًا باتجاه الأردن وسوريا، ثم ينحرف شرقًا إلى الذُّرْوة الشمالية من حَدَبة الجزيرة، وينحدر إلى الجهة الغربية من بلاد ما بين النهرَين، نزولًا إلى الخليج العربي. وبما أن الحمار كان وسيلة انتقالهم، فإنهم لم يكونوا قادرين على التوغل في الصحراء، بل كان عليهم محاذاة الأراضي التي يوجد فيها الماء، فيَبْقَون ملازمين لها على أطراف الصحراء. وكان طريقهم الذي يبدأ من الحجاز يوصلهم في النهاية إلى بلاد ما بين النهرَين، نزولًا من الشمال. وتتفق هذه الحقيقة مع الأوصاف التي أطلقها السومريون على الأكَّديِّين بأنهم مهاجرون قَدِموا من الشمال. لقد كان قَطْع الصحراء من الغرب

إلى الشرق مستحيلًا قبل تدجين الإبل، كما كان شرق الجزيرة العربية دائمًا قليل السكان؛ بحيث لا يدفع إلى هجرة على نطاق واسع.

من الاستقرار في الزراعة إلى التنقل في الصحراء

لم تكن حركة السكان مقصورة على الهجرة من الصحراء إلى الهلال الخصيب في الشمال، فقد حدثَت هجرة مشابهة في الاتجاه المعاكس. وقد درج علماء الاجتماع على اعتبار الحركة السابقة عادية ومسوَّغة؛ لأنهم كانوا يرون فيها رفعًا للناس إلى مستوى من الحياة أكثر تطورًا، من ظروف الصحراء القاسية إلى أحوال معتدلة في أصقاع تكتسب خصوبتها من الأمطار أو الأنهار. وقد غيَّر ذلك جَدَب الصحراء إلى وفرة، كما غيَّر تنقلهم إلى استقرار، وجنَّبهم الحاجة إلى الغارات والعداوات الدائمة. وكان من شأن الاستقرار أن فتح لهم سبلًا أخرى غير الحرب، مثل التجارة المشروعة وإنتاج السلع وتبادلها. ولكن ما الذي يدفع الناس إلى الحركة في اتجاه معاكس؟

ثمة ثلاثة أسباب كبرى قد تَضطرُّ السكان إلى ذلك، وقد يكون أول تلك الأسباب كارثة طبيعية، مثل هزَّة أرضية عنيفة أو طوفان. وما يزال التراث العربي يتذكر خراب سدِّ مأرب العظيم في مملكة سبأ في الجنوب الغربي من بلاد العرب إبَّان القرن الخامس للميلاد؛ وهو ما أدى إلى دمار واسع واضطراب كبير بين السكان. ويتحدث التراث العربي عن كثير من القبائل من الجنوب الخصيب هاجرت إلى الصحراء في الشمال بسبب تلك الكارثة. فقبيلة الأزد مثلًا، بجميع بطونها في الهلال الخصيب تعود بنسبها إلى محتد مستقر في اليمن.

والسبب الكبير الثاني الذي يدفع السكان المستقرين في الأراضي الخصبة نحو الهجرة إلى الصحراء، هو الخلاف المذهبي مع النظام الحاكم، فالخلاف الديني أدى إلى اضطهاد في (أور) (قضية إبراهيم ونمرود)، وذلك في أوائل الألْف الثاني قبل الميلاد، كما حدَث مثل ذلك في اليمن عام 523 م (المسيحيون وذو نواس). ففي كلتا الحالتين -كما سوف نتحدث عنهما بالتفصيل في مجال لاحق- كان على من وقع عليهم الاضطهاد أن يهربوا. فالصحراء العربية توفِّر مخابئ ممتازة، من بينها مساحات مضلِّلة وأراض وعرة. وتقاليد الضيافة الموجودة في كل مكان بين أهل الصحراء توفِّر الحماية للقادم الجديد الذي قد يغدو مصدر عون كبير في عَلاقات مقبلة مع السكان المستقرين في الأرض التي هاجر منها.

والسبب الكبير الثالث الذي يدفع للهجرة إلى الصحراء هو أن الحياة فيها أفضل من الحياة في الأرض الخصبة، فما في الصحراء من خشونة وحرمان يُعوِّض عنهما ما تمنح من حرية وبساطة، وفراغ يبعث على التأمل، وعناية فائقة بالنطق والبيان، ومحبة وابتهاج بالشعر والفصاحة، وسعي حثيث نحو المروءة -وهي الصفة التي تجمع فضائل الرجولة والشجاعة والإخلاص والكرم- بل كل ما يتيح للمرء الارتفاع فوق مسارب الوجود لبلوغ نظرة جديدة نحو الحقيقة والواقع. والصحراء العربية هي -قطعًا- ليست امتدادًا من كثبان رملية، فهي أشبه بالسهوب التي يصيبها شيء من المطر، وفيها أنواع كثيرة من النبات والحيوان تقتات عليها قطعان من الإبل والغنم والماعز إلى جانب البشر. وكان قاطن الصحراء يَعُد نفسه دومًا أنقى نَسبًا وكلامًا من الفلَّاح المقيم، وأقوى في الحرب، وأشدَّ عزمًا في السِّلم، وأصلبَ عودًا في وجه الشدائد، وأخلصَ في الصداقة، وأنبلَ ذهنًا بوجه عام. ثم إن الصحراء لم تكن من البعد بحيث يصعب على المستقرين التعرف إليها، فقد كان هؤلاء غالبًا ما يغامرون بالدخول إلى الصحراء في مواعيد منتظمة، وخاصة في الربيع، ولم يكن أهل

الصحراء غرياءَ عنهم بل كانوا أبناء عمومة وذوي نسب، من قريب أو بعيد. لقد قدَّمت حياة الزراعة وسائل عيش أكثر تطورًا وازدهارًا ماديًّا، مع قدر أدنى من الكرامة إزاء تعاظم الروح التجارية، بينما وجدت النفوس الحساسة جاذبية أعظم، وتحقيقًا للذات أشدَّ غنًى في حياة الصحراء.

وقد يتفق أن يجتمع السببان الأخيران لتكوين نظرة جديدة إلى الحياة، أو قد يجد المنشقون المضطهدون ما يقرِّبهم من هذه النظرة المتولدة عند ابن الصحراء في انشغاله الدائم بمسائل الهُوِية والمصير. وقد تغدو ضغوط السكان والذرائع التاريخية أدوات وآلات في خدمة حركة مقدَّر لها أن تفتح آفاقًا جديدة للتاريخ.

الصورة 1-2 جرّة بنقوش حيوانات طراز (جمدة نصر) اكتشفت في خفاجة، حوالي 2500 ق.م.

حركات السكان الخارجية
غزوات من الخارج

لا شك أن هذه الأرض قد شهدت غُزاةً من الخارج، فالحيثيون، وهم (شعوب الجبال) الذين سبَق ذكرهم، قد دخلوا بلاد العرب، قادمين من آسيا الصغرى، وذلك في تاريخ مبكر يعود إلى عام 1535ق.م، بقيادة (مرسوليس الأول) الذي غزا بابل، وفتح الطريق لإخضاعها أمام الكاشيِّين الذين قَدِموا من الشرق (بلاد فارس). واستمر الحيثيون في إنهاك المنطقة من قواعدهم في سوريا، كما دخل الحوريون إلى شمال الهلال الخصيب، قادمين من بلاد القوقاس. وقد سيطر الحوريون والحيثيون والكاشيون على المنطقة، وأقاموا الحكومات لإدارة الأقاليم التي فتحوها، وذلك طوال ثلاثة قرون منذ ظهورهم على المسرح السياسي في حدود عام 1500 ق.م. وقد أقام الحوريون دُوَل (ميتان) في شمال الهلال الخصيب في حدود عام 1500 ق.م، واتخذوا (واسُوكاني) عاصمة لها، ولكن تلك الدولة انهارت بعد 150 سنة. وقد امتدت تلك الدولة إلى حدود المتوسط تقريبًا، وشملت مدن (نوزي) و(أرَّابخا) في بلاد آشور و(آلالا) في سوريا. كما ازدهرت تلك الدولة، وصارت لها عَلاقات طيبة مع مصر إلى درجة أن الفرعون (تحتمس الرابع) (1406-1398ق.م) و(آمنحوتب الثالث) (1398-1361 ق.م) اتَّخذا أميرات (ميتاني) زوجات لهما. لكن تلك العَلاقات الطيبة انهارت عام 1365 ق.م نتيجة حروب الخلافة على المُلك، التي أجبرت (ماتيوازا) على توقيع معاهدة التبعية إلى ملك الحيثيين (سوبيلوليوماس).

كانت (شعوب الجبال) خليطًا من أقوام هندوأوروبية، تخلفت هناك بعد الهجرات الآرية، وفي جميع الأحوال كان الحكام والنبلاء من الهندوأوربيين (كما تدل على ذلك أسماؤهم)، وقد جعلوا من أنفسهم طبقة حاكمة بمعزل عن الآخَرين، كما

احتكروا لأنفسهم سلاح الحرب الجديد في ذلك العصر: الحصان، والعربة الحربية. وقد استخدموا نظامًا معقَّدًا في العَلاقات السياسية والقضائية والدبلوماسية لإدامة الفروق الطبقية. ولكن الحكام أنفسهم قد خضعوا لتأثير أهل البلاد في جميع النواحي، فاستعملوا اللغة المحلية في كتابة وثائقهم الرسمية، كما تبنَّوا دياناتهم وثقافاتهم وأعرافهم.

وكان الكاشيون أول من انغمس انغماسًا كاملًا في ديانة بلاد ما بين النهرين وثقافتهم، وقد حذا الآخرون حَذْوهم بالتدريج، فاقتبسوا اللغة والثقافة والدين من الأقوام التي غلبوها. والحق أن هذا التجانس قد ساعد على نشر لغة أهل البلاد (الأكَّدية) وثقافتهم بين أقوام لم يكونوا يتكلمون تلك اللغة قطُّ، وفيهم المصريون، كما تدل على ذلك رسائل (العمارنة) (آخيتاتون). وقد انتشر الخط المسماري في جميع أنحاء الشرق الأدنى، كما اقتبس الفاتحون الغزاة الآثار الأدبية الكبرى لبلاد ما بين النهرين، التي تمثِّل ثقافة البلاد وديانتها وتجلياتها الفنية وموضوعاتها، ونشروها بين أقاصي البلاد والعباد. وقد كتب (ساباتينو موسكاتي) يقول: «وهكذا فإن الحضارة الجديدة لا غالب فيها ولا مغلوب، فمثل روما في العصور الوسطى، على الرغم من انحلالها السياسي، كانت بلاد ما بين النهرين في عصر (شعوب الجبال) تحتفل بانتصار ثقافتها»[6].

الخريطة رقم (3) بلاد العرب: دول العرب قبل ظهور الإسلام.

تدمـــر (پالميـــرا)

القبائـــل	بنو غسَّان، جماعات تَنوخ، بنو بَحره، إلخ.
العاصمـــة	تدمر.
الديانـــة	مسيحية تقول بطبيعة المسيح الواحدة، وديانة بلاد ما بين النهرين.
التاريـــخ	تدمر العموريين 1100 ق.م. پالميرا هادريانا (زيارة الامبراطور هادريان، 130م) 130 - 270 م. شملت مصر وآسيا الصغرى إلى أنقرة.
الازدهـــار	التجارة مع الصين، وريثة البتراء. تابعة إلى روما من عام 117م. دمرها الإمبراطور (أورليان) عام 272م.

البتراء (دولة النَّبطيين)

القبائـــل	مديَن، جُذام، بنو بالي، بنو عَذرة.
العاصمـــة	البتراء، شُيِّدت في القرن الخامس ق.م.
الديانـــة	مسيحية تقول بطبيعة المسيح الواحدة، وديانة بلاد ما بين النهرين.
التاريـــخ	ازدهرت في القرن الأول ق.م. مركز تجاري بين طرق الشمال والجنوب. غزاها الرومان عام 105م.
المزايـــا	بترا، المدينة المنحوتة في الصخر.

الحَضَر 85-241م

القبائـــل	بنو نمر، بنو تغلب، بنو جُديلة.
العاصمـــة	الحضر، على بعد 50 كم غرب آشور.
الديانـــة	ديانة بلاد ما بين النهرين، بعض المسيحيين والزرادَشْتيِّين.
التاريـــخ	بدأت في القرن الأول ق.م. ازدهرت بالتجارة، وسيطرت على الطُّرق التجارية بين بلاد ما بين النهرين وآسيا الصغرى وبلاد فارس وبيزنطة. تابعة للفُرس. أثار ازدهارها حسد الفُرس، فتسببوا في دمارها عام 241 م.
المزايـــا	شماش (الشمس) أكبر آلهتها، عمارات وتماثيل فخمة في العاصمة. من شعرائها: طرفة بن العبد، الحارث بن حلِّزة، عمرو بن كلثوم، وجميعهم من أصحاب المعلَّقات.

لخـــم

القبائـــل	تنوخ، بنو بكر، بنو تغلب، بنو مُضَر.
العاصمـــة	الحيرة، 3 أميال جنوب الكوفة.
الديانـــة	ديانة بلاد ما بين النهرين، بعض الزرادَشْتيِّين والمسيحيين النساطرة.
التاريـــخ	تابعة للفرس من عام 400م. حكم فارسي مباشر 602 - 635 م. نهاية الدولة: الفتوحات الإسلامية 635 م.
المزايـــا	الخورنق، القصر العظيم للملك، بهرام كُور، ابن يَزدَجِرد.

غسّان

القبائل	بنو غسّان.
العاصمة	بُصرى، الجابية، جِلِّيق.
الديانة	مسيحيون من القائلين بطبيعة المسيح الواحدة، بعض أتباع ديانة بلاد ما بين النهرين، وبعض اليهود.
التاريخ	ازدهرت في القرن السادس الميلادي. معارك مع لخم، أعوام 545، 554، 580 م. غزاها الفرس عام 613-614 م. والبيزنطيون عام 629 م.
المزايا	شعراء البطولة والحرب: لبيد، من أصحاب المعلقات. حسّان ثابت، شاعر الرسول.
آخر ملك	جَبَلة بن الأَيْهم.

كندة

القبائل	بنو بكر، بنو أسَد، بنو غَطَفان، بنو كِنانة.
العاصمة	الفاو، في الجنوب. الأنبار، في الشمال، على الفرات.
الديانة	مكية، ديانة بلاد ما بين النهرين.
التاريخ	0 - 529 م. ازدهرت بين 480-529 م. خاضعة لملوك تُبَّع في اليمن. من شعرائها الأبطال: السَّمَوْأل.
المزايا	من شعرائها امرؤ القيس (ت 328 م) أول أصحاب المعلقات. السموْل، الشاعر اليهودي من تَيماء.

مكة

القبائل	قريش.
العاصمة	مكة.
الديانة	مكية، ديانة بلاد ما بين النهرين.
التاريخ	مركز ديني رئيس. الكعبة، مجمع 365 من الأصنام لجميع العرب. مركز الحج. مركز تجاري لبلاد العرب.
المزايا	سوق عكاظ موسم المباراة السنوية لشعراء العرب. منزلة سامية من جميع الوجوه لدى العرب. سلطة معنوية على شبه الجزيرة.

وبعد فترة من تثبيت أقدامهم في الأناضول، قام الحيثيون بقيادة (هاتوسيليس الأول) بإرسال حملة إلى حلب نحو عام 1750 ق.م، وبعد ذلك بقرنَين من الزمان وجدوا لديهم من القوة ما يدفعهم إلى الإغارة على بابل، وكان هذا حال (الإمبراطورية القديمة) التي دامت حتى عام 1380 ق.م، عندما بدأت مشكلات الخلافة على المُلك التي استغلها (سوبيلوليوماس) ليتسلم مقاليد السلطة 1380-1340 ق.م. وكان ما أصاب مصر من ضعف نتيجة إصلاحات (أخناتون) أن (سوبيلوليوماس) وجد فرصة أخرى لتوسيع إمبراطوريته إلى شمال بلاد ما بين النهرين وإلى شمال سوريا وإلى لبنان. وفي عام 1250 ق.م قضى على الإمبراطورية الحيثية (شعوب البحر) المسلحون بالأسلحة الجديدة التي أوجدها العصر الحديدي، فانهالوا على المنطقة جميعها قادمين من بلاد الإغريق وجزائر بحر إيجة وكريت وقبرص. وقد نزل هؤلاء على المنطقة في مُدَّة من الضَّعف الشديد والانقسام، إذ كانت مصر وبلاد ما بين النهرين في حالة من الانكسار بسبب غزوات شنَّتها (شعوب الجبال). وزاد على ذلك بضعة قرون في المنافسة من الجناح الغربي من الهلال الخصيب، أي سوريا الجغرافية، وهو ما أنهك الجانبَين، وجعل سوريا عُرضة لمن لديه القوة ليستولي عليها. وقد حاول الحيثيون الاستيلاء على سوريا، كما حاولت (شعوب البحر) ذلك، وقد جاؤوا بأسلحة تُضارع ما لدى الآخَرين، إن لم تتفوَّق عليها، كما كانوا يسيطرون على الطُّرق البحرية بين شواطئ المتوسط الشرقية وبين الجزائر التي جاؤوا منها.

وسرعان ما استوعبت حضارة بلاد ما بين النهرين (شعوب البحر) هؤلاء، كما سبق أن فعلت مع أبناء عمومتهم في الشمال، من حيثيين وحوريين وكاشيين، ولم تكن مساهمة هؤلاء الشعوب كبيرة في الدين أو اللغة أو الثقافة، بل في التنظيم السياسي الذي مكَّنهم من فرض سيطرتهم بحُسن استخدام أسلحتهم الحديدية الجديدة. وكان يترأسهم (مُقدَّم بين أنداد) وهو رئيس ذو صلاحيات محدودة، تضعه على رأس السلطة طبقة من النبلاء تدعمه مثلما تسيطر عليه. وكان لدى (شعوب البحار) مثل (شعوب الجبال) رؤساء ليسوا بآلهة، كما كان الأمر في مصر، ولا ممثِّلي آلهة على الأرض، كما كان الأمر في بلاد ما بين النهرين. وكان هؤلاء إذا غلبوا شعبًا آخر لا يقتلون، ولا يخرِّبون جائرين ولا يستعبدون ضحاياهم، بل كانوا يدخلون معهم في معاهدة تحدِّد موقعهم سادةً، وتُحيل المغلوبين أتباعًا. وكان وضع الأتباع من المغلوبين تحدِّده المعاهدة التي تغدو كذلك وثيقة تشريعية أو مصدر قانون وسُلطة. وكان ذلك نوعًا من أنواع الاتحاد لم يكن معروفًا حتى ذلك الحين. وكانت سُلطة الغالب تقام إلى جانب السلطة المحلية لأهل البلاد، فتستبعد بذلك أية صورة من صور الاستعمار وتفتح الأبواب للتثاقف، وهكذا بدأ التداخل بين الثقافات والأديان وبين العادات والأعراف، وهو ما أفسح المجال للأقوى منها، أن يظهر منتصرًا على الغالب والمغلوب. وإذ استوعبت حضارة ما بين النهرين بعض عناصر حضارة الغالبين، غدت هُويَّتهم المنفصلة بمجموعها في مهب الريح. فلما اضمحلَّت سُلطة الغالبين السياسية، تفكَّكت تلك الهُوية المنفصلة، وتوحَّد الغالبون مع أهل البلاد الأصليين.

وكان الأمر خلاف ذلك مع المصريين بعد غزو الهكسوس في عهد السلالة الثامنة عشرة 1570-1305 ق.م، يوم احتلوا الجانب الغربي من الهلال الخصيب ولم يتقبَّلوا التجانس، وكان غرضهم يومذاك حماية حدود مصر ومعاقبة أولئك الذين يتحدَّون الفرعون أو يعصون أوامره. وفي عهد الإمبراطورية 1465-1090 ق.م، بقي هدفهم على حاله، ولكن الاضطراب السياسي في تلك المُدَّة وقدوم (شعوب الجبال) و(شعوب البحار) تطلَّبَ حضورًا مصريًّا أكثر استقرارًا. وإذ كان التوسع المصري جنوبًا نحو النوبة وغربًا نحو ليبيا، يعني الإلحاق والضمَّ، فإن التوسعَ نحو آسيا ما كان يعني سوى توسيع القوة العسكرية والسياسية. فالأراضي الآسيوية التي

احتلتها مصر لم تندمج قطُّ بالمملكة المصرية إذ كان الآسيوي بالنسبة إلى المصري غريبًا دائمًا، وبحاجة دائمة إلى الإخضاع عسكريًّا وسياسيًّا، ولا يمكن أن يكون شريكًا أبدًا؛ لذلك اكتفت مصر بتعيين مندوب يمارس سلطته على رؤساء البلاد الآسيوية وشعوبها، ويفرض عليهم الجزية بحسب أوامر الفرعون.

وقد عَرَف هذا الاستعمار المصري أيامَ عز وأيامَ ضَعف، وفي الحالتَين لم يكن الأمر يؤدي إلى تجانس إلا لأولئك المصريين الذين كان يحملهم الواجب الرسمي على البقاء في سوريا لمُدَد طويلة، لكن الغالبية كان بوسعهم العودة إلى بلادهم وحضارتهم، وقد فعلوا ذلك، حاسبين وجودهم بين الآسيويين مهمة عسكرية ضرورية لكنها مؤقَّتة. أما القلة التي أرغمتها الظروف على البقاء في آسيا، فقد استوعبتهم وذوَّبتهم بوتقة (بلاد العرب) كما فعلت مع الآخَرين جميعًا من غير الآسيويين. وقد بلغ التجانس بهؤلاء المصريين أن صار موظَّفو الفرعون في آسيا يكاتبون رؤساءهم في مصر بالأكَّدية، لغة بلاد ما بين النهرين من الهلال الخصيب.

لكن الأمر لم يكن كذلك مع الفُرس، ففي عهد إمبراطورية الأخمينيِّين 550-330 ق.م، قام (سيروس) بغزو بابل، كما قاد (قمبين) جيوشه فاحتل سوريا طولًا وعرضًا إضافة إلى مصر. وقد دام حكم الفُرس في مصر أكثر من قرن من الزمان، حتى قُضِي عليه عام 401 ق.م، عند قيام السلالة السابعة والعشرين. لكن حكم الفُرس في سوريا استمر دون مناهضة حتى قَضَى عليه الإسكندر الكبير عام 332 ق.م. ولا يعنينا في هذا الصدد مصير الفُرس في مصر؛ لأن مصر لم تكن جزءًا من حضارة بلاد العرب في ذلك الحين، لكن الفُرس في الهلال الخصيب تجانسوا مع حضارة بلاد ما بين النهرين وساهموا فيها بوجوه مهمة عِدَّة.

وللمرّة الأولى في التاريخ، استطاع الفُرس توحيد غرب آسيا في إمبراطورية واحدة، باستثناء شبه الجزيرة العربية، فمن بلاد الهند إلى نهر الدانوب، ومن بحر قزوين إلى بلاد النوبة، توحَّدت هذه الأقاليم جميعًا تحت إدارة واحدة. فالنظام الإداري القائم على حكام ولايات يتَّبعون تعليمات وسياسات متشابهة، وفتحُ الاتصالات بين الأقاليم، وسكُّ النقود لتسهيل التجارة، بل إقامة طريق رئيس يربط بين تلك الأقاليم ويبلغ طوله 1500 ميلًا بين (سوسة) و(ساردِيس)، قد ساهمت جميعها في إقامة مستوى طيِّب من الوحدة والأمن والازدهار لجميع السكان. وإذ كان (سيروس) مؤسِّس الإمبراطورية قد اتَّبع سياسة من التسامح جعلت في وسع السلالات والمؤسَّسات أن تنشط تحت سيطرة فارسية، فإن ابنه (داريوس) وحفيده (سرخس) قد فرضا صيغة صارمة من الديانة الزرادشتية، أكسبت كُلًّا منهما لقب الطاغية القاسي. ففي رقيم يعود إلى (سرخس) اكتُشِف في (يرسيبوليس)، يُصرِّح الملك قائلًا: «لقد تمرَّدتْ... بعض البلاد؛ لكني سحقتُها بمعونة (أهورامازدا)، وتحت ظل (أهورامازدا) اقتلعت معابد الإله الشرير وأعلنتُ: لا تعبدوا الآلهة الشريرة بعد اليوم.»[7]

ومع ذلك فقد تلاشى الحضور الفارسي في بلاد العرب بفعل التجانس، وقد كان لذلك سببان: الأول، القدرة الهائلة لحضارة بلاد ما بين النهرين على التأثير في القادم الجديد واستيعابه حضاريًّا. والثاني، أن عملية إضفاء صفة بلاد ما بين النهرين، أو الصفة العربية على الشعوب الفارسية، كانت قد بدأت قبل وصولهم فاتحين بعِدَّة قرون؛ لذلك كان الفرق الفكري بين الغالب والمغلوب أقلَّ من أن يُذكَر، ويظهر ذلك بجلاء في الأشكال الفنية والأدبية التي حملوها إلى بلاد العرب. ثم إن وصول الإغريق واندحار الفُرس قطَع الحضور الفارسي في بلاد العرب عن منابعه الأصلية في بلاد فارس، وما تبقَّى من ذلك الحضور في العالَم العربي، سرعان ما اكتنفته حضارة بلاد ما بين النهرين، فلم يعُدْ له من أثَر بيِّن.

الخريطة رقم (4) الدِّين في بلاد العرب قبل الإسلام.

يقدِّم لنا غُزاة الأزمنة اللاحقة أمثلة أكثر وضوحًا، فقد كان الإغريق وراء الكثير من معالم الحضارة الهيلينية في الهلال الخصيب. ومع ذلك، فإن مَن تخلَّف منهم في تلك المنطقة غمرتهم حضارتها، فتجانسوا بعملية بدأت بظهور الإسكندر الكبير، وتواصلت حتى أُخريات أيامه. وكان نصيب الرومان مثل ذلك، ومثله نصيب التَّتَر والمَغول والتُّركمان الذين وصلوا بلاد العرب، مهاجرين في موجات متلاحقة بدأت في القرن الثامن الميلادي، أو جاؤوها غزاة في القرن الثالث عشر. وقد راح هؤلاء يمارسون نوعًا من الكهانة والشعوذة ما لبثوا أن تخلَّوا عنها، عندما اتصلوا بدين الإسلام وحضارته. فقد اعتنق الإسلامَ حفيدُ جنكيزخان، وراح أبناؤه يجمعون جيوش الأُمة الإسلامية وراءهم في موجة جديدة من الفتوحات في روسيا والبلقان ووسط أوروبا. وتَنادَى المسلمون في العالَم لانتخاب خلفاءَ من آل عثمان، لا بوصفهم من الأجانب الأتراك، بل بوصفهم مسلمين تجانسوا تمامًا مع حضارة المنطقة: دين الإسلام.

وتصدق هذه الحقائق على الصليبيِّين الذين جاؤوا من أوروبا في موجات متعددة بين القرن الثاني

عشر والرابع عشر للميلاد، إذ توغلوا في الأراضي السورية، واحتلوا مساحات كبيرة منها، ونجحوا في إقامة عدد من الدُّوَيلات الهزيلة، وكانت دولة الصليبيين في القدس في يومها من أقوى الدول في المنطقة، كما كان الصليبيون أنفسهم من أشدِّ الجماعات الدينية والسياسية تماسكًا في بلد غير بلدهم، وقد دام الحكم الذاتي في تلك الدولة أكثر من مئة عام. لكن أوروبا، بعد حين، فقدت اهتمامها بالصليبيين ومغامرتهم، فعاد بعضهم إلى بلادهم، لكن أغلبهم قرَّر البقاء والاعتماد على النفس، وبعد جيل أو اثنين تشرَّبوا حضارة البلاد واكتمل تجانسهم مع أهلها بالتزاوج، فلم يعُدْ بالإمكان تمييزُهم عمَّن سواهم.

وفي الماضي القريب، قام البريطانيون والفرنسيون والإيطاليون بغزو واحتلال واستعمار مناطق واسعة من بلاد العرب، التي كانت منذ ذلك الحين، وبفضل الإسلام، قد توسَّعت لتغطي الشمال الإفريقي برُمَّتِه. وقد كان وصول تلك الأقوام نتيجة التوسع الصناعي في أوروبا، كما كان استعمارهم تلك المنطقة مدفوعًا بشعور عاطفي بأفضلية جنسهم على جنس سكان تلك المنطقة. وقد كانت قوتهم العسكرية والسياسية والاقتصادية عصية على التحدي؛ وهو ما جعَل العالَم العربي يرزَح تحت نِيرهم لما يقرب من قرن من الزمان.

لقد بقيت روابط المستعمرين بأوطانهم بالِغةَ القوة طوال مدة اغترابهم، فلما فقَدَ استعمارهم ما كان يدعمه، عاد جميعهم تقريبًا إلى أوطانهم. ولكن لا بد من استثناء حالتين: حملة نابليون لاحتلال مصر، و(المستوطنات) الفرنسية في تونس والجزائر والمغرب. وقد بقي الفرنسيون في مصر بسبب تدمير أسطولهم في معركة أبي قير عام 1798 م، وهو السبب الأهم، إلى جانب قيام البريطانيين بإفشال تلك الحملة. أما بقاؤهم في شمال إفريقيا، فكان سببه الأهم تلك الضائقة الاجتماعية والاقتصادية التي تُصاحِب المرء عندما يقتلع نفسه من جذوره، ليستقرَّ في مكان آخَر. وقد تم تثاقف الجماعة الأولى وتجانسها في مُدَّة جيل واحد، أما الجماعة الثانية فهي سائرة في نفس السبيل.

وهكذا شهدت بلاد العرب تدفق الكثير من الأجناس المتنوعة، ولكنها هضمتهم جميعًا، وحوَّلتهم إلى ديانتها ونظرتها إلى العالم من خلال المثاقفة والتجانس. ولا شك أن حملات الغزو والاستعمار قد أدخلت بعض التغييرات الملموسة على الملامح العِرقية للسكان المحليين، ولكنها لم تؤثر شيئًا في الروح أو اللغة أو صنوف الوعي أو الدين أو الفكر في بلاد العرب، فقد اغتنت بلاد العرب بدرجات متفاوتة بالعناصر الأصلية التي حملتها معها كل موجة من الغزوات، من الخيول والعربات الحربية التي أدخلتها (شعوب الجبال) إلى الفلسفة الروحية والعلوم التطبيقية التي حملها الهيلينيون إلى المعارف التطبيقية التي جاءت من مصر القديمة أو الغرب الحديث. فعلى امتداد خمسة أو ستة آلاف سنة، استطاعت بلاد العرب الحفاظ على استمرار الوحدة السكانية. ولم يكن بمقدور أية إضافة مهما كان حجمها أو قيمتها أن تُغيِّر من طبيعة أو تكوين تلك الوحدة. ومن هنا كان من المشروع الحديثُ عن عِرقية عربية، ولو أن أغلب المذاهب الفكرية التي شاركت فيها بلاد العرب في تاريخها الطويل -باستثناء المذاهب الفكرية عند بعض العِبرانيين وأعراب شبه الجزيرة قبل الإسلام- كانت تناهض العِرقية وتدعو إلى العالمية.

الديانة المكية / ديانة بلاد ما بين النهرين في أرجاء شبه الجزيرة

الأصنام

وَدّ، في مَعين – النخلة المقدّسة في نجران – ذات أنواط (شجرة)، مكة – العُزّى، في نخلة – اللات في الطائف – ذو الشَّرى، في البتراء – مناة (حجر أسود)، في قُديد، بين مكة ويثرب – هُبَل، كبير الآلهة، في الكعبة.

أيام يُحتفل بها

يوم بُعاث	الأوس ضد الخزرج، 610 م.
أيام الفِجار	قريش وكنانة ضد هوازن، 585 م.
يوم البسوس	بنو بكر ضد بني تغلب، 498 م.
شعراء البطولات الحربية	الجسّاس بن مُرّة ضد المهلهل.
يوم داحس والغبراء	عبس ضد ذبيان، 530 م.
شاعر البطولات الحربية	عنترة بن شداد 615 م.
يوم عكاظ	يوم في السنة للمباراة الشعرية في نخلة والطائف.

المسيحية

الإمبراطورية البيزنطية	سائدة في أرجاء المنطقة.
الهلال الخصيب	عامة في دولة الغساسنة من عام 500 م. (طقس الإيمان بالطبيعة الواحدة للمسيح). يعقوب البرادعي (مطران جميع العرب) في «آديسًا» جَبَلة بن الأيْهم، آخر ملوك الغساسنة، يعتنق الإسلام ثم يرتد عنه عام 634 م. في أنحاء متفرقة من لحم (الطقس النسطوري). القديس شمعون العمودي، 400–418 م. بعض الأتباع في شمال بلاد العرب.
شبه الجزيرة العربية	قليلون في اليمن (الكنيسة القبطية). أرياط (غزو الأحباش لليمن) 523 م. أبرهة (الغزوة الحبشية الثانية) 565 و 570 م. اليهود يقتّلون المسيحيين في عهد الملك (ذو نواس) في اليمن. (القرآن، 85- البروج: 4) 560 ق.م. الفرس يغزون القدس، 613–614 م. حملة فارسية بقيادة (وَهْراز) تخرج المسيحيين الأحباش من اليمن 575 م.

اليهودية

بنو قريظة والسامريون.

المواقع: يبنا (جامنيا) صفد، بابل، تيماء، خَيبر، المدينة، اليمن.

في اليمن: دين الدولة في عهد (ذو نواس)، ٥٦٠–٥٧٠ م.

الزرادَشتية

في جميع أرجاء إيران.

في أنحاء متفرقة من دولة لخم وعُمان والبحرين وقطر.

بعض الأتباع في اليمن، ٦٣٢–٥٦٠ م.

أطلس الحضارة الإسلاميّة

مؤلَّف يتجاوز حدود الكتابة التقليدية ليقدّم موسوعة شاملة وعميقة عن مسيرة الحضارة الإسلامية وتأثيرها الواسع، بدءاً من جذورها الأولى، وصولاً إلى تأثيرها الممتد إلى مشارق الأرض ومغاربها، إذ يمثّل هذا الأطلس رحلة فكرية غنية تبرز الإسلام في سياق الحضارات، مستعرضاً أسس الإسلام وأهم مبادئه، ويسلط الضوء على مبدأ التوحيد كجوهر الإسلام وأساسه.

ولا يقتصر هذا الكتاب على كونه دليلًا فريدًا لفهم الإسلام والواقع التاريخي الذي وُلِدَ فيه؛ بل يزخر بأكثر من ٣٠٠ صورة وتخطيط وغير ذلك من الرسوم، إلى جانب ما يقرب من ٧٥ خريطة أصلية، فما يقدمه المؤلفان في هذا الكتاب هو في الواقع: الإسلام يتحدث عن نفسه؛ فالكتاب يعرض جوهر الحضارة الإسلامية في مناحيها جميعاً من ممارسات المسلمين اليومية إلى تراث الإسلام في الفنون والعلوم والقانون والسياسة والفلسفة.

إن هذا الكتاب يشكّل إضافة جوهرية إلى المكتبات العامة والخاصة، ومصدراً غنيًّا وقيّماً لجميع المهتمين بالإسلام بوجه عام؛ إذ يقدّم رؤية تاريخية واضحة ومفصلة للإسلام، موثقًا حقائق دين يتبعه حوالي ربع سكان العالم.

د إسماعيل راجي الفاروقي

واحد من أشهر المتخصصين بمقارنة الأديان وبدراسة الإسلام في العالم. ولِدَ في فلسطين وحصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة إنديانا بالولايات المتحدة. مارس التدريس في "المعهد المركزي للبحوث الإسلامية" في باكستان وفي جامعات "تِمْبِل" و"شيكاغو" و"سيراكيوز" الأمريكية و"ماكجيل" الكندية.

كان رئيس "الكلية الإسلامية الأمريكية" في شيكاغو وأستاذاً في قسم الدين بجامعة " تِمْبِل" في بنسلفانيا. وقد ألّف وشارك في تأليف كثير من الأبحاث والكتب من أهمها: " التوحيد: مضامينه على الفكر والحياة"، و" الأخلاق المسيحية: تحليل نظمي وتاريخي للأفكار السائدة"، و"الأطلس التاريخي لأديان العالم" و "الديانات الآسيوية الكبرى" كما كان رئيس "المعهد العالمي للفكر الإسلامي".

د لويس لمياء الفاروقي

حصلت على دكتوراه الفلسفة في الدراسات الإسلامية من جامعة "سيراكيوز" الأمريكية. وهي خبيرة بالفنون الإسلامية والموسيقى. مارست التدريس في جامعة "بتل" و "بنسلفانيا" و "فيلانوفا" وقسم الدين في جامعة " تِمْبِل". من أعمالها المنشورة: "مصطلحات الموسيقى العربية: قاموس وشروح"، و "الإسلام والفن"، ودراسة عن الموسيقى العربية قُدِمت لمؤتمر اليونسكو حول "الموسيقى في حياة الإنسان: تاريخ عالمي".

1. الحضارة الإسلامية
2. الثقافة الإسلامية
3. العلوم عند المسلمين
4. الفنون الإسلامية
5. العالم - تاريخ - خرائط
6. الفتوحات الإسلامية - خرائط
7. الأرض - تاريخ - خرائط
8. التاريخ الإسلامي - أطالس
9. المساجد - العالم - خرائط

ISBN: 9786035095082

تواصل معنا
CONTACT US